رواية

2020
31.12.2019

ماري شيلي

ترجمة: عبدالعزيز عواد العنزي
مراجعة: ريما حمود

الإنسان الأخير

الحُب

Mary W. Shelley
The Last Man

الإنسان الأخير
(الحب)

ماري شيلي

رواية

ترجمة
عبدالعزيز عواد العنزي

مراجعة
ريما حمود

2018

الإنسان الأخير (الحب)

ماري شيلي

الإنسان الأخير (الحب) / رواية
ماري شيلي

ترجمة: عبدالعزيز عواد العنزي
مراجعة: ريما حمود

الإخراج الفني: ستوديو سيماء

الطبعة الأولى- إبريل 2018
978 - 99966 - 979 - 7 - 5 : ISBN
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية- دولة الكويت:
2018/072

Novel by: Mary Shelley
The Last Man

First published in 1826 by Henry Colburn
Translated from English by Abdulaziz Awad El-Enezi
Revised by: Rima Homoud

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر

هاتف: 51088000 965+ / 99462219 965+
البريد الإلكتروني: info@daralkhan.com
تويتر: @DarAlKhan_kw
انستغرام: daralkhan_kw

© Alkhan Publishing & Distribution
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.
إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

المجلد الأول

1

المقدمة

زرت نابولي في العام 1818. وفي الثامن من ديسمبر من ذلك العام غدوت وصاحبي إلى الخليج لزيارة الآثار المتناثرة على ضفاف بايا. حيث غمرت المياه الصافية المتلألئة أجزاء من القصور الرومانية العتيقة، التي داخلتها الطحالب ووسمتها الشمس ببقع ماسية الشكل. كان البحر صافيا وكأن غالاتيا مادت فوقه في عربتها اللؤلؤية، أو أن كليوباترا اختارته بديلا أنسب من النيل لسفينتها السحرية. وعلى كونه شتاء، كان الجو أقرب إلى أول الربيع؛ وهيأ الدفء اللطيف لشعور ببهجة رائقة، مقسومة لكل عابر متلكئ كاره لفراق خلجان بايا الساكنة ورعونتها المشعة.

زرنا ما يسمى بحقول إيليسيوم والجحيم، وجلنا بين العديد من الخرائب لمعابد وحمامات، ومواقع تاريخية. وأخيرا دخلنا مغارة عرافة كوماي الكئيبة. وحمل أدلاؤنا مشاعل حمراء متوهجة إلا أنها بدت قاتمة لشدة ظلمة الممر السري الذي بدا وكأنه متعطش

لامتصاص الضوء. عبرنا مدخلا طبيعيا مقنطرا قادنا إلى رواق آخر، واستفسرنا إن كان بإمكاننا دخوله أيضا. إلا أن أدلاءنا أشاروا إلى انعكاس شعلاتهم على الماء الغامر لأرض الرواق، تاركين لنا معرفة الإجابة؛ مضيفين، إنه لأمر مؤسف، لأن الرواق يؤدي إلى مغارة العرافة؛ ما أشعل حماستنا وفضولنا وإصرارنا لتجربة الممر. وكما جرت العادة في مثل هذه المغامرات، بدا الأمر أقل صعوبة ما إن شرعنا به، إذ وجدنا موطئ قدم على كل جانب في الممر الرطب. أخيرا وصلنا إلى مغارة كبيرة مهجورة مظلمة، والتي أكد لنا الدليل أنها مغارة العرافة. وعلى خيبة أملنا الكبيرة، تفحصنا المغارة بعناية وكأن جدرانها الصخرية الشاحبة لا تزال تحمل أثراً سماوياً. وجدنا فجوة في أحد أطرافها. «إلى أين تؤدي؟ وهل نستطيع الدخول؟» سألنا. وأجاب الهمجي الفظ، الحامل للمشعل: «لن تستطيعوا المضي بعيدا فيها، ولا أحد يدخلها».

«مع ذلك سأحاول»، قال صاحبي «قد تؤدي إلى المغارة الحقيقة. أأذهب وحدي أم سترافقينني؟»

أبديت استعدادي للمضي قدما، إلا أن الأدلاء عارضوا الفكرة. وانطلقوا بلهجتهم النابولية، التي لم نفهمها جيدا، قائلين

لنا أن هناك شبحا، وأن السقف قد يهوي، وأن الممر ضيق جدا للمرور فيه، وأن هناك حفرة عميقة مليئة بالماء، وأننا قد نغرق. قاطعهم صاحبي بأن أخذ المشعل من يد حامله، ومضينا وحدنا.

بالكاد وسعنا الممر في البداية، وسرعان ما ازداد ضيقا وانخفاضا إلى أن كدنا أن نمشي راكعين؛ إلا أننا أصررنا على المضي فيه. أخيرا، بلغنا مكانا منفرجا عالي السقف، وبينما كنا نهنئ أنفسنا بهذا التغيير، هب تيار انطفأ معه مشعلنا وبتنا في ظلام تام. لم يكن معنا شيء من المواد التي يحملها الأدلاء لنوقد المشعل من جديد، وكان سبيلنا الوحيد هو العودة من حيث أتينا. تلمسنا الهواء حولنا بحثا عن المدخل، وبعد حين خلنا أننا نجحنا. ولكن تبين أنه طريق آخر، إذ كان جليا أنه يقود إلى الأعلى. وكسابقه أفضى إلى نهاية مغلقة، إلا أن بصيصا لم نتبين مصدره خلق فجرا كاذبا حيث وقفنا. اعتادت أعيننا العتمة إلى حد ما، وخلصنا إلى أن لا طريق هناك يقود إلى أبعد من هذا؛ ولكن، بإمكاننا أن نتسلق أحد جوانب المغارة إلى أعلى قنطرة منخفضة بدت كممر أفضل حين عرفنا أن الضوء ينبثق منها. بصعوبة بالغة تسلقنا إلى الأعلى، لنصل إلى ممر آخر ذي إضاءة أفضل، وكسابقه عرج بنا إلى الأعلى.

وبعد سلسلة متعاقبة من هذه الممرات، والتي لم نكن لنجتازها لولا تصميمنا، وصلنا إلى مغارة فسيحة ذات سقف أشبه بالقبة. توسطته فتحة أتاحت دخول ضوء السماء، إلا أن ستارا كثيفا من الشجيرات والعليق كساها كحجاب، مضيفا مهابة دينية إلى المكان. كان المكان رحبا، ودائريا تقريبا، وانتصب في أحد أطرافه مقعد حجري بحجم أريكة يونانية. وكان أثر الحياة الوحيد هيكلا شديد البياض لمعزة، والتي على الأرجح سقطت من فتحة السقف التي لم تلاحظها أثناء رعيها. ولربما مرت سنون طوال منذ وقعت هذه الحادثة المؤسفة ما سمح للستار النباتي لأن يلأم نفسه.

أما بقية ما تحوي المغارة فقد كانت أكواما من أوراق الشجر، وقطعا من لحاء، وغشاء أبيض شبيه ببطانة الذرة الفجة. كان التعب قد نال منا عند تلك النقطة، فجلسنا فوق الكرسي الحجري، بينما وصلتنا أصوات أجراس الأغنام وراعيها من الأعلى.

هتف صاحبي الذي كان قد أخذ بعضا من الأوراق المتناثرة «هذه مغارة العرافة؛ وهذه أوراقها». وبعد أن نظرنا وجدنا أن كل الأوراق وقطع اللحاء والغشاء خطت عليها رموز وأحرف. وما زادنا دهشة، أن تلك الكتابات كانت بلغات عدة: آرامية، ومصرية قديمة بقدم الأهرامات، ولغات أخرى جهلها صاحبي. والأغرب

أن بعضها كانت بلهجات محلية حية، إنجليزية وإيطالية. لم نستطع قراءة الكثير أسفل الضوء الخافت إلا أن هذه الأوراق الضئيلة بدت كنبوءات تحمل تفاصيل أحداث مرت مؤخرا، أسماء شهيرة معاصرة، وبشائر نصر أو نذر هزيمة. كانت هذه بلا شك مغارة العرافة، وإن كانت لا تشبه ما وصف فيرجل لما نالها من تشوه إثر هزات الزلال والبراكين. ولعلنا ندين إلى الحادث الذي سد مدخل المغارة وللستار النباتي لحفظهما هذه الأوراق. جمعنا على عجل بعضا من الأوراق التي عرفنا لغتها، ثم ودعنا المغارة محملين بكنزنا هذا قبل أن ننضم إلى أدلائنا.

عدنا مرات عديدة إلى المغارة، أثناء مقامنا في نابولي، مع الأدلاء، أو لوحدنا أحيانا، مبحرين فوق صفحة البحر المضيء، بغية زيادة حصيلتنا من الأوراق. ومنذ ذلك الحين، انكببت على فك رموز هذه الآثار المقدسة، ولم يمنعني عنها إلا شغل طارئ أو ظرف قاهر. فكانت معانيها العجيبة البليغة مواسية لي في حزني، أو محفزة خيالي لمغامرات جامحة مع الإنسان والطبيعة. ولبعض من الوقت، لم أكن وحيدة في عملي هذا؛ إلا أن الموت أخذ مني شريكي في السراء والضراء؛ ففقد العمل على هذه الآثار ألذ شيء فيه.

وحسبت أن كتابي بالغك

وأن الدهر بي جامعك

ولكنه كان حاسدا، يا كنزي، فمنعك

إلى العامة أقدم آخر ما اكتشفت في أوراق العرافة. ولأنها كانت غير متصلة ومبعثرة المعنى، كنت ملزمة بأن أصلها بما يناسب، لتظهر متماسكة. إلا أن ذلك لم يخل بجوهر هذه الشذرات الشعرية، فبقيت الحقائق التي فيها كما هي.

لطالما تساءلت عن موضوعية هذا النص، وعن اليد الإنجليزية التي صاغته. وكنت أجيب نفسي، بأنه لولاي لبقيت هذه الأوراق مبعثرة لا جامع لها، لذا فلي بأن أصيغها كيفما أشاء. ولو أعطينا مثلا فنانا ما قطع الفسيفساء التي تشكل لوحة تجلي المسيح لرفائيل، لأعاد تشكيلها بما يناسب موهبته وذوقه. وكذلك فعلت، بآثار عرافة كوماي. وعذري الوحيد في ذلك، هو أنني لو تركتها على حالها، لما كانت ذات معنى.

كان هذا العمل مؤنس وحدتي، ومغنيني عن العالم، وأحال

ذهني من أفكاره الرثة، ليشع بخيال باهر. وقد يسأل سائل ما، كيف لي أن أستمتع بسرد هذا البؤس والشقاء؟ وإجابتي، أن لكل أمرئ غرائز لا يستطيع رد سطوتها عليه، وهذه إحدى غرائزي. وأعترف أنني تأثرت بأحداث القصة؛ بل اكتأبت، وتألمت في بعض فصولها، التي نقلتُ بأمانة. إلا أن الإثارة التي نالها ذهني، وخيالي، هونت علي الأمر، بإضفائها هالة من المثالية على تلك الأحداث، نازعة منها الألم المميت.

ولست أدري إن كان هناك داع لهذا الاعتذار. إذ ستحدد صياغتي وترجمتي، لآثار العرافة، إن كنت ممن ضل سعيهم، أم أحسنوا صنعا.

الفصل الأول

أنا ابن أرض سورها البحر، وظلالها الغمام؛ أرض لو نظرت إلى وجه البسيطة، بمحيطاتها وقاراتها العظام، لما بدت أكثر من بقعة نائية. ولكن لو وزنت بميزان العقل لرجحت على شعوب وأراض تفوقها عددا وحجما. وما المرء إلا بعقله، أما الطبيعة فليست إلا ناظرة له. لطالما زارتني إنجلترا، القابعة في بحر الشمال المضطرب، في أحلامي ، كسفينة من أحسن ما صنع الإنسان، متكئة على الأمواج بزهو. كانت عالمي في صباي. وكنت حين أمد بصري فوق سهولها وجبالها الممتدة إلى أبعد مما أرى، المرقشة بساكنيها من أبناء جلدتي، والمزدانة بالخضرة التي أنبتوا، أشعر وكأني ملكت الدنيا بيدي، وأن ما عداها من أرض لا تستحق أن يطمح خيالي لها ولا أن يسعى عقلي لمعرفتها.

كان حظي منذ أن ولدت، شاهدا لسطوة القدر على أحوال الرجال، وكان هذا مع إهمالي وقلة مراعاتي شبيها بوِرثي عن أبي. فقد أكرمت الطبيعة والدي بما يحسد عليه من ذهن وقاد وظرافة، وحرمته الحصافة، تاركة إياه لعبة لأهوائه تتقاذفه كيفما تشاء. وعلى أنه لم يكن ذا أصل معروف، ساقته الظروف إلى البروز

في المحافل في أول شبابه، وسرعان ما أهدر ما ورث من والده على الملذات والمتع. وصار في شبابه الطائش محبوبا من علية القوم من العابثين، وعلى رأسهم الملك الشاب. الذي كان يفر من هموم ومشاغل الملك، ليجد في رفقته بهجة ومتعا لا تنقضي. كان اندفاعه وتعجله سببا في وقوعه في الكثير من المشاكل، ولم يكن ينجيه منها إلا ذكاؤه الحاد؛ وكان ما ركبه من ديون تجارية وأخرى بسبب القمار كفيلا بأن يقصم عزم أي رجل آخر، إلا أنه كان يستخف بالأمر ويستقبله بالضحك. ولأن وجوده كان ضروريا على طاولة القمار، كان أصحابه من الأغنياء يغضون الطرف عن تقصيره، وكان هذا مما يسعده.

إلا أن شعبيته تلك، كغيرها لم تكن لتدوم طويلا، وما لبثت أن تفاقمت مشاكله إلى حد أعجزه عن احتوائها. وفي مثل تلك الظروف، كان الملك بحماسته له هو الذي يهب لنجدته مدفوعا بحمية الصداقة. وفي كل مرة يقدم والدي الوعود بألا يعود لمثل هذه التصرفات مجددا؛ إلا أن صحبته، وحبه للأنظار، وأشد من ذلك، استحكام شيطان القمار منه، كلها أمور جعلت من وعوده وعودا واهية. ولما كان لديه من فطنة فريدة، أحس بأن قبوله بين القوم صار أقل وأضعف. ذلك أن الملك تزوج من أميرة نمساوية

متغطرسة، ناظرة بعين السخط إلى والدي وإلى محبة الملك له. أحس والدي بدنو وقوعه، وبدلا من أن يستغل الهدوء السابق للعاصفة في إنقاذ نفسه، قرر أن يفني فرصته في محراب الملذات، مقدما نفسه قربانا للمتعة.

كان الملك رجلا ذا أخلاق كريمة، إلا أنه سهل القياد، وصار كالتلميذ المطيع لزوجته المستبدة، التي أمالت قلبه لينظر بعدم الرضا، ثم السخط على هفوات والدي وتصرفاته الحمقاء. والحق أن حضور والدي كان يبدد تلك الغيوم؛ لما يبدي من صراحة وذكاء وحسن طوية تفوز بقلب الملك. إلا أن غيابه كان ذلك الوقت الذي تُعيد فيه مساوءه على مسامع الملك، لتطيح بمكانته. وأتقنت الملكة توظيف دهائها في إطالة غيبات والدي، لتنسج مزيدا من الشباك له. وأخيرا، صار الملك يراه مصدرا مستمرا للإزعاج، لما أيقن أن كل متعة ينالها والدي وأصحابه كانت مادة لموعظة طويلة مملة ينالها الملك، وحكايا مزعجة تُقال، لا يستطيع لها إنكارا. فكان أن قرر الملك، منح والدي فرصة أخيرة لإصلاح حاله، فإن فشل قطع العلاقة معه إلى الأبد.

وقرار كهذا لابد أن دافعه المحبة والرغبة الصادقة بالنفع. فليس من السهل أن يلين ملك -في عليائه- جانبه لامرئ، متوسلا

له تارة ومعاتبا أخرى، مانحا إياه فرصة لأن يزيل كل سوء ظن فيه، وأن يوظف مواهبه في عمل جليل يكون فيه الملك داعمه ومرشده، بدلا من العبث الذي يعيشه. تأثر والدي بهذا اللطف، وطاف به خياله الطامح، ونوى أن يبدل حاله إلى حال أفضل. فقدم الوعود بصدق وإخلاص؛ وكزيادة في الفضل، أعطاه الملك مبلغا من المال ليسدد به ديونه المستعجلة، ويبدأ حياته الجديدة بداية طيبة. وفي نفس الليلة، ومع ما به من شكر بالغ، خسر والدي ذلك المبلغ وضعفه في لعبة قمار. إذ ضاعف الرهان أملا في تعويض خسارته، لينتهي بدين لا يطيق سداده. وخجِلا من طلب المساعدة من الملك، ولّى ظهره للندن، وزخرفها الكاذب وبؤسها المقيم، مصطحبا فقره، ليدفن نفسه في وحدته فوق تلال وبحيرات كمبرلاند . ولطالما تذكر الناس خصاله الحسنة، من أخلاق حميدة، وذكاء اجتماعي، وتناقلت ذكراه الأفواه. سائلين عن مصير الذي كان محط أنظار الناس، ذلك النجم اللامع الذي زين مجالس الأنس والجد ببهاء أخاذ. ليجيب من سمع بأنه الآن مشرد لا سقف يؤويه؛ يتناقلون بينهم أن أحدا لم يظن بأنّه أهلا للعمل الجاد، وأنه لم يكن ليطول به العيش الكريم. أما الملك فقد ندب غيابه، فكان يأنس بذكر أخباره وما جرى لهما من مغامرات، ولكن لم يزد على ذلك.

بينما لم ينس والدي المنسي. وظل يتحسر على ما كان أغلى عنده من الماء والهواء، متعة الملذات، وإعجاب النبلاء به، وعيش علية القوم الرغيد. وكنتيجة لذلك أصابته حمى التيفوئيد؛ فقامت على رعايته ابنة صاحب الكوخ الفقير التي كان يسكن فيه. كانت محبوبة ورقيقة، والأهم أنها كانت لطيفة معه. ولا عجب إن وجدت ساكنة الكوخ الفقيرة تلك سحرا في هذا النجم الآفل النبيل، حتى في أسوأ أحواله. فكان عاقبة التعلق بينهما زواجا محكوما بالفشل، وكنت أنا ثمرته.

وعلى حسن وعذوبة والدتي، ظل زوجها يرثي حاله المتردي. ولأنه كان غير ذي علم بصنعة تنفعه، كان عاجزا عن إعالة أسرته المتكاثرة. وكان أحيانا يحدث نفسه بطلب العون من الملك، فيزجره الكبرياء والخجل؛ وظل على هذه الحال من تغلب حيائه على حاجته، إلى أن مات. غير أنه نظر مرة، قبل أن نفجع فيه، إلى المستقبل بعين متأملة ساخطة فرأى ما سيكون عليه حال زوجته وأبنائه بعده. فكان آخر ما بذل من جهد أن كتب رسالة إلى الملك تفيض فصاحة مؤثرة، ولمحات من روحه المتألقة. وبذلك أوكل زوجته وأيتامه إلى رعاية صديقه الملك. متيقنا من أن مستقبلهم أفضل بموته، لا بحياته. وأودع الرسالة يد رجل نبيل يثق بأنه لن

يألو جهدا في سبيل إيصالها إلى يد الملك.

مات مديونا فصودر القليل الذي كان يملك مباشرة. أما والدتي، معدمة المال والمثقلة بطفلين، فقد انتظرت لأسابيع، تلتها أشهر، في ترقب متعب للجواب الذي لم يأت. لم تكن تعرف شيئا خارج حدود كوخ والدها؛ وكان قصر سيد منطقتها أقصى ما تدرك من الفخامة. ومع أن والدي عرَّفها بأسماء ذوي الملك وأهل بلاطه قبل أن يتوفى، إلا أن الأمر كان بالنسبة لها خياليا ومبهما لأنها لم تر منه شيئا من قبل، ولأن دليلها الوحيد على وجود ذلك العالم قد توفي. كما أنها لم تقو على استجماع نفسها وسؤال أي من النبلاء الذين ذكرهم زوجها لها، إذ كان فشل رسالة زوجها كفيلا بمنعها من المحاولة. ورأت أن لا مهرب من الفقر المدقع. ثم تكالب عليها همنا غير المنقطع، وحزنها على فراق ذلك الرجل الرائع -الذي ما فتئت تذكره بحب شديد- والعمل الشاق، فضلا عن صحتها الضعيفة، لتريحها أخيرا من الفاقة والبؤس.

كان شقاء أيتامها لا نظير له. فوالدها الذي أتى مهاجرا من منطقة أخرى مات منذ زمن؛ ولم يكن لهم قريب ليشملهم بعنايته؛ كانوا فقراء منبوذين وبلا صديق، وباتوا يرون أي عون يلقونه فضلا عظيما. وعوملوا كأبناء الرعاع الهمج، وفاق فقرهم من تركهم

الفقر أمانة في يد المحسنين المغلولة.

كنت أكبر الطفلين وبعمر الخامسة حين توفيت والدتي. ولم أكن أتذكر شيئا من حديث والديّ، ولا الأخبار التي حدثتني بها والدتي عن معارف أبي راجية أن أنتفع منها يوما، إلا غبشا. كنت مدركا لاختلافي وتفوقي على أقراني، ولكن لم أدر بم وكيف. وثبتَ فيَّ شعور بارتباط بين الظلم الذي أعيش والملك والنبلاء؛ إلا أنه لم يكن كافيا لإرشادي كيف أتصرف. كانت أول معرفتي بنفسي كفقير بائس ساكن لوديان وتلال كمبرلاند. عملت عند أحد المزارعين كراع للغنم، ورعيت قطيعا ضخما في التلال القريبة، مستعينا بعصاي وكلبي. ولا خير يذكر من تلك الأيام؛ إذ فاق أذاها متعتها. لم يكن هناك قيود في صحبة الطبيعة ولا الوحدة، إلا أن ذلك لم يكن ملائما لروح الطفولة المُحبة للمغامرة والمشاركة. ولم يفلح رعي الغنم ولا تعاقب السنين في تهدئة طبعي المتمرد؛ وزاد منه ما كنت أقضي من وقت في البرية كلما تسنى لي. حيث كونت عصابة ممن هم على حالي من الشقاء، وصرت قائدهم. وكل رعاة الغنم سواء، فبينما كانت أغنامنا تنشر في المراعي، كنا نخطط لشتى أنواع المكائد، والتي كانت تجر علينا عقاب القرويين. ولما كنت رأس أصحابي البارز وحاميهم، كان عقاب

سوء أعمالهم يقع عادة علي. فكنت أجني احترامهم وخضوعهم جزاء ما كنت ألقى من عقوبات في سبيلهم.

في مثل هذه الظروف، عُركت عزيمتي، ورسخت. ونما في ما ورثت من والدي من حب الظهور وانعدام الحلم، فغدوت أكثر طيشا وتهورا. كنت خشنا كالصخر، وهمجيا كالحيوانات التي أرعى. كنت كثيرا ما أقارن نفسي بها، ولاعتقادي أن ما يميزني عنها هي القوة فقط، آمنت بأن القوة فقط هي ما يفرقني عن أقوى حاكم على الكوكب أيضا. وهكذا، جبت مرتديا جهلي، وإحساسي الدائم بدنو منزلتي، تلال انجلترا المتحضرة بفظاظة وجلافة كتلك التي كان عليها مؤسس روما . آمنت بالقوة فقط، وأن أشرف ما أصنع هو ألا أخضع لطاعةٍ أبدا.

إلا أني أستثني أمرا واحدا من تلك القاعدة، وذلك أنه كان من وصايا والدتي، زيادة على وصاياها التي نسيت ودروسها التي لم أطبق، رعاية أختي؛ والتي قمت بها على أحسن ما أستطيع، مقدما لها كل ما جادت به نفسي من حب وعطف، كما أوصتني والدتي. صغرتني بثلاث سنين؛ وقمت على رعايتها في أول سنيها، إلا أن اختلاف جنسينا أجبرنا على السكن في أماكن مختلفة. ومع ذلك، ظلت محل رعايتي واهتمامي. كنا يتيمين بكل معنى الكلمة؛

منبوذين حتى ممن لا كرامة لهم، ومن أفقر الفقراء. وإن كانت جرأتي وإقدامي أسبابا لمهابة الآخرين لي ونفورهم مني، فقد كانت أنوثتها وصغرها أسبابا لعدد لا حصر له من الإهانات التي تعرضتْ لها. ولم يكن بأسها من الشدة بأن يعينها على دفع الشر عن نفسها.

ومع ما ورثت مثلي من صفات والـدي، فقد كانت كائنا وحيدا. كان الهدوء سمتها؛ لم تكن عيناها كئيبتين، إلا أنهما كانتا غامضتين؛ ترى فيهما روحا وعالما ينمان عن ذكاء ووعي. كانت شديدة البياض، متوجة بشعر ذهبي بهي، مشابه للكائن الرخامي أسفله. ولاءم ثوبها الفقير الخشن بشكل عجيب، قسمات وجهها النقي. كانت كإحدى قديسات جويدو ، تسكنها جنة ظاهرة على محياها، فكان الناظر إلى بهائها يرى صفاء سريرتها ولا يخطر بباله مظهرها.

ولكن، مع كل ما كان فيها من رقة ومشاعر نبيلة، لم تكن المسكينة برديتا (اسمها الجميل الذي انتقاه لها والداي الراحلان) على ذلك القدر من الشبه بالقديسين. إذ كانت تصرفاتها منفرة وغير ودية. ولربما كان حالها مخالفا لو أنها نشأت في كنف من يحبها ويهتم بها؛ فقد كانت تنظر بعين الريبة إلى كل فعل محسن

تجاها، وكان ردها الصمت دائما. وعلى ما كان بها من خضوع لمن علاها بالسلطة، كانت نافرة من الناس، مقطبة الجبين دائما، وكأنها ترى الجميع عدوا. كانت الوحدة خيارها لقضاء أوقات فراغها. إما جائلة في أماكن نائية، أو متسلقة لارتفاعات خطرة، ملتحفة وحدتها، حيث أنها في هذه الأماكن التي لم تألف الزوار كثيرا ما قضت ساعات تذرع طرق الغابات؛ ناسجة إكليلا من اللبلاب والورد، أو متأملة تلاعب ظلال أوراق الشجر المرتعش؛ وأحيانا كانت تجلس بجانب جدول ما، رامية فيه وردا أو حصى ناظرة لغرق هذه وطفو تلك. وأخرى، كانت تلقي فيها قوارب صنعتها من لحاء الشجر أو ورقها، تتوسطها ريشة مكان الشراع، متتبعة إبحار فلكها في أحوال الجدول الجارية أو الساكنة. بينما ينشغل خيالها بنسج آلاف الأحداث؛ أحداث فيضانات أو معارك، وتنسى نفسها في متعة الخيال هذه، لتعود مكرهة إلى تفاصيل الحياة اليومية بعد ذلك.

كان الفقر الحجاب المخفي لرونقها، وكل حسن فيها بدا ذاويا لقلة ما تلقى من الحنان. ولم يكن لها من ذكريات الوالدين شيء كما لدي؛ فكان تعلقها فيّ كصديقها الوحيد، إلا أن قربها الشديد مني زاد من البعد بينها وبين المتكفلين بها، فصاروا يرون

الخطأ منها جريمة لا تغتفر. ولو أنها نشأت في كنف راع لمواهبها، لكانت محل إعجاب شديد، لِما كان لها من شمائل حسنة تفوق عيوبها. ورثت من والدها كل ما حمل من نبل، فكان الكرم يجري منها مجرى الدم، وكان الحسد والبغض أبعد شيء عنها؛ وكانت ملامحها وقت الرضا كملامح ملكة غراء، ببريق عينيها وهيئتها الواثقة.

وعلى كوننا منقطعين تقريبا عن العالم أجمع، إلا أن الفارق بيننا كان كبيرا جدا. إذ كنت دائم الطلب للرفقة والإطراء. بينما كانت برديتا مكتفية بنفسها. ومع ما كان بي من تمرد، كنت اجتماعيا، وكانت هي منطوية. كانت حياتي في العالم المادي، وحياتها في الأحلام والخيال. ولن يخطئ قائل إن قال أنني أحببت حتى أعدائي، لما منحوني من متعة؛ وفي المقابل، كرهت برديتا حتى أصدقاءها، لما أفسدوا من خلواتها. كل أفراحي كان تنقلب إلى أتراح إن لم أجد من يشاركني إياها؛ بينما كانت برديتا تختار النأي حتى في فرحها. ولا يضرها أن تمضي يوما كاملا بلا حديث أو أنس رفيق. بل أنها كرهت أصدقائها لتدخلهم في عالمها الخيالي، ولم تكن تبدي لهم أي ود. وكبر تفضيلها للصمت حتى صار مبدأ وصارت لا تنطق إلا نادرا. أحيانا، كانت كروضة غناء، روتها

السماء بالندى، وألبستها ثوبا من أزهى الثمار والزهور؛ وأحيانا أخرى، كانت قاسية كأرض بور.

كانت تسكن في كوخ على جانب تل، ينحدر منه العشب إلى أسفل، إلى بحيرة ألسووتر؛ ويظاهره شجر الزان الذي يغطي بقية التل، وجدول ينساب إلى البحيرة تحت ظلال شجر الحور. وسكنت أنا عند مزارع بنى بيته فوق أعلى التلال. وخلفه انتصبت صخرة عابسة في وجه ريح الشمال الباردة، حيث سكن الثلج شقوقها طوال العام. قبل الفجر، كنت أسوق غنمي إلى مراعيها وأقوم عليها بقية النهار. كانت حياة تعب وعناء؛ إذ كان البرد والمطر فيها أكثر ألفة من الأيام المشمسة، شحيحة الدفء، لذا تحزمت بعزمي لأصمد. وبينما كانت عين كلبي ترعى الأغنام، كنت أنسل إلى موعدي مع رفاقي، لننجز مكائدنا. كان لقاؤنا وقت الظهيرة، لنلقي بسهمنا من الطعام، وننشغل بإعداد النار لطهو ما سرقنا من لحم الطرائد من المنازل المجاورة. وأثناء تحلقنا حول النار كالغجر، كانت تتتالى قصص الهلاك الوشيك، ومصارعة الكلاب، والخلاص من الكمائن. وفي العصر، كنا نملأ وقتنا بالبحث عن حمل ضائع، أو التفكير بطريقة تجنبنا العواقب؛ وعند المساء، يعود صحبي إلى مخادعهم وأذهب أنا إلى أختي.

نادرا ما كنا ننجو من العقاب. فكان الثمن الذي ندفع لقاء ما نسرق من لحم إما الضرب أو السجن. وهذا ما تم لي في سن الثالثة عشرة، حين حبست في سجن المقاطعة. وخرجت بأخلاق أسوأ مما دخلت عليه، وكره أكثر لظُلَّامي. فلم يروضني ماء وخبز السجن، ولا أوهن الحبس الانفرادي قلبي. كنت مشحونا بالغضب والبؤس ونفاد الصبر. ولم يؤنسني في حبسي إلا الساعات التي قضيت أخطط فيها للانتقام ممن تسبب في سجني، والتي أتقنت وضعها في حبسي الانفرادي. لذا، وبعد أن خرجت في أول سبتمبر، لم أفشل مرة طوال ذلك الشتاء في جلب حصة وافرة لي ولأصحابي. كان شتاء عظيما. إذ كانت الحيوانات قليلة الحركة بسبب الجليد والثلج الكثيف، واحتمى أهل الأرياف ببيوتهم. مما سهل طريقنا إلى لحم أكثر مما استطعنا أكله، حتى كبر وسمن كلبي الوفي لكثرة ما أكل من فضلاتنا.

وهكذا مرت السنين؛ ومعها زاد حبي للحرية، وبغضي لكل من لا يحمل مثل طباعي. ونما جسمي حتى إذا ما بلغت السادسة عشر، كنت مستويا كالرجال، طويلا ومفتول العضلات؛ معجونا بالعمل الشاق، والظروف القاسية؛ مسفع الوجه، واثق الخطوة. غير آبه بخشية أو حب لأحد. ولطالما قلبت فكري في ذلك

الماضي، وهالني ما كنت سأكون عليه لو أنني ظللت على ذلك الحال. كنت أعيش كالبهائم، وكنت قد أوشكت على الانحدار فكرا إلى مستواها البهيمي. ومع ذلك، لم تقدني طباعي السيئة إلى شر بالغ؛ إلا أنها كانت ذا أثر في زيادة شدة بأسي، أما عقلي -مثقلا بأعباء يومي- كان مشبعا بكل المزايا السيئة لي. كانت أوقات الفراغ تحضني على الشر كل يوم، وصار الفراغ مرتعا للفحش، كنت على أعتاب سن الرجولة، وكانت تحركني أهواء ضارية، ثبتت مني كثبوت الأشجار الباسقة في الغابة، وكادت أن تعصف بحياتي.

تقت إلى مغامرات أكبر من تلك التي ملأت طفولتي، ونسجتُ أحلاما مجنونة للمستقبل. وبت أتحاشى رفاقي القدامى، إلى أن انقطعت عنهم. فقد بلغوا سنا يتعين عليهم فيه المضي في الطريق المحدد لهم مسبقا؛ أما أنا، من لا وال له، بقيت في مكاني. فصرت مضرب مثل للسوء عند كبار، ومن مثل مصيري كان يحَذَره الصغار. كرهت الجميع، والأسوأ أنني بدأت أكره نفسي. زاد تشبثي بطباعي الوحشية، على امتهاني لها؛ ومضيت في حربي ضد التحضر، على ما كان بي من رغبة بأن أعيشه.

قلَّبتُ مرات ومرات كل ما أخبرتني به أمي عن حياة والدي

السابقة. وتأملتُ آثاره القليلة، التي نمَّت عن رغد يفوق كل ما في أكواخ هذا الجبل؛ إلا أنها لم تهدني إلى طريق يوصلني إلى حياة أفضل. كان والدي ذا علاقة بالنبلاء، إلا أن جل ما أعرف من تلك العلاقة هو نبذه. وارتبط اسم الملك بالظلم والجفاء، بسبب تجاهله لرجاء والدي الأخير. ولدت لأكون أعظم مما أنا عليه -وسأصير- إلا أن العظمة في نظري المشوه لم يكن لها علاقة بالخير، ولم يلتفت فكري لأي وازع أخلاقي حينما كان يلج بأحلام الرفعة والسمو. وهكذا، وقفت على شفير التهلكة، وأسفل مني بحر هادر من الشر؛ موشكا أن ألقي نفسي فيها راجيا أن يذلل موجها الجارف طريقي لأحلامي. عندما هب تغيير غريب على مصيري، وساقه من حاله الصاخب إلى روضة من السكون.

الفصل الثاني

عشت بعيدا عن مراكز الثقل في البلاد، ولم تكن تصل إشاعات الحرب والتغيرات السياسة إلى مساكننا الجبلية إلا بعد حين. كانت إنجلترا مسرحا لصراع خطير إبان صباي. ففي العام 2073، تنازل آخر ملوكها، وصديق والدي القديم، عن العرش نزولا عند رغبة رعيته، لتقوم جمهورية خلفا للمملكة. ونال الملك المخلوع وأسرته الكثير من الأراضي؛ إذ منح لقب إيرل وينزر ، وقلعتها الملكية، فضلا عن أراضيها الشاسعة، لتكون نصيبه من الثروة. إلا أنه لم يلبث طويلا حتى مات، مخلفا اثنين من الذرية، ابنا وبنتا.

لطالما حثت الملكة السابقة زوجها على مقاومة التغيير. كانت متغطرسة وجريئة؛ محبة للسلطة، ودائمة الازدراء لمن نزع عن نفسه عباءة الملك. ولأجل أبنائها فقط، ذعنت وقبلت أن تعيش مجردة من الملك، وأن تكون فردا في الجمهورية الإنجليزية. وحين ترملت، كرست نفسها لتربية ولتعليم ابنها أدريان، إيرل وينزر الثاني، ليحقق مآربها؛ فأرضعته رغبتها وأنشأته ليستعيد تاج الملك. كان أدريان في سن الخامسة عشر، شغوفا بالعلم وسابقا لسنه لما حوى من العلم والمواهب، وقد أشيع عنه رفضه لرغبة

والدته وإيمانه بمبادئ الجمهورية. مع أن الملكة المتغطرسة حرصت على تعليم أبنائها بما يوافقها. إذ نشأ أدريان معزولا عن أقرانه من أبناء سنه وطبقته. إلا أنه ولأسباب غير معلومة شاءت والدته أن ترفع جناحها عنه، وبلغنا أنه قادم لزيارة كمبرلاند. وانتشرت آلاف القصص المتحدثة عن سلوك إيرل وينزر؛ وعلى الأرجح لم يكن أيا منها صحيحا؛ إلا أنه بمرور الأيام ازددنا يقينا بأن سليل ملوك البلاد السابقين سيحل علينا.

كانت هناك أرض كبيرة ذات قصر ريفي، تابعة لأملاك أسرته، في ألسووتر. ومن ملحقاتها، حديقة بديعة الترتيب، مترعة بالصيد الوفير. ولكم نهبت من مخزونها ذاك، إذ سهّل خلوها من السكان عليَّ ذلك. وحين تأكد خبر زيارة إيرل وينزر الشاب، وفَدَ العمال لتهيئة الأرض والمسكن لاستقباله. فأعيدت الغرف إلى رونقها الأول، وأصلح كل ضرر في الحديقة، وقامت عليها خفارة مشددة.

أزعجني هذا الخبر كأشد ما يكون. وأحيا كل ذكرى للألم وإحساس بالظلم، وخلق رغبة جديدة بالانتقام. فصرت عاجزا عن إنجاز عملي؛ ونسيت كل أمانيِّ وأحلامي؛ وغدوت كالمقبل على حياة جديدة يحدوها الشر. وأذِنَ للحرب - بظني- أن تبدأ. إذ سيأتي مزهوا بما هو عليه إلى منطقتنا، إلى حيث فر والدي كسير

القلب؛ ليجد ذريته البائسة الفقيرة، التي أودعت بظن عقيم إلى كف والده الملك. وبدا لي أن عاقبة هذه الزيارة ستكون -ولا بد- معرفته بوجودنا ليعاملنا باحتقار قريب، كما فعل والده من بعيد. وهكذا، كان لزاما علي مجابهة هذا المراهق النبيل -ابن صديق والدي- الذي سيكون حتما محاطا بالخدم؛ ورفقته من أبناء البلاء؛ وكل إنجلترا قد سمعت باسمه وبمقدمه؛ كدوي الرعد المسموع من بعيد. بينما سأقف أمامه، إن قابلته، جاهلا جلفا، ليعرف أصحابه في هيئتي وشخصي ذلك النكران الذي أوصلني إلى ما أنا عليه من رجل دون.

ولما شُغِلَ عقلي وفكري بتلك الأفكار، أكثرت من التردد على محل الإقامة المزمع للإيرل الشاب. فراقبت سير العمل، وتابعت تفريغ العربات، ونقل ما بها من أنواع النفائس القادمة من لندن، إلى داخل القصر. كان كل هذا البهرج جزءا من خطة الملكة السابقة، التي أرادت أن تحيط ابنها بهيبة أميرية. نظرت فرأيت سجادا فاخرا وستائر حريرية، وحليا ذهبية، ومعادن منقوشة، وأثاثا زاهيا، وكل ما يلحق بترتيبات علية القوم، وكأنه لا ينبغي لعيني سليل الملوك أن ترى إلا ما كان ذو بهاء ملكي. ثم نظرت إلى أسمالي، من أين جاء كل هذا الفرق؟ جاء من النكران، والكذب، والتقصير من

جانب والده، وشح مشاعره النبيلة. وقد تربى بلا شك -ابن والدته المتغطرسة وحامل دمها، ومحط أنظار أثرياء ونبلاء المملكة- على ذكر اسم والدي باحتقار، وأن يهزأ بطلبي المشروع للحصانة. وجهدت أن أقنع نفسي بأن كل هذا الفخامة ما هي إلا رذيلة لامعة، وأنه لن يفوز بنصب رايته المنسوجة من الذهب، بجانب رايتي الممزقة والملطخة، إلا بالخزي.

إلا أنني كنت أحسده. فخيوله الأصيلة، وأسلحته المصنوعة على يد أكثر الصناع تكلفة، والثناء والإعجاب المحيط به، وتأهب الخدم بين يديه، وعلو مقامه، كلها أمور عددتها منزوعة مني، قهرا؛ لذا كان فيّ حسد مر لا ينضب.

ولِيُتوج غيظي، أبلغتني برديتا، برديتا الحالمة التي بدت وكأنها عادت منتشية إلى الواقع، بأن إيرل وينزر على وشك الوصول.

«أيسرك ذلك؟» سألت مستاء.

«طبعا يسرني، ليونيل،» أجابت؛ «الحق أنني متشوقة لرؤيته؛ فهو ابن ملوكنا، وأنبل رجل في البلاد، الكل معجب به ويحبه، ويقال أن أصله هو أقل فضائله حسنا؛ وأنه كريم، وشجاع، وحسن المعشر».

«أرى أنك حفظت ما سمعت، برديتا» قلت، «ونسيتي أن دليل فضائل الإيرل هو ما نعيش؛ فكرمه سبب الرغد الذي نعيش، وشجاعته تتجلى في حمايته لنا، وحسن عشرته في الرعاية التي يولينا. قلت أن أصله هو أدنى ما به من فضائل؟ كيف وما به من فضائل إنما هو بسبب ذلك؟ فلكونه غنيا يقال أنه كريم؛ ولكونه ذا سلطة يقال أنه شجاع؛ ولكون مخدوما يقال أنه حسن المعشر. ليقولوا ما شاءوا، ولتصدق كل إنجلترا ما يشاع عنه -نحن أعلم به- فهو عدونا المتغطرس، النذل، الشحيح؛ ولو كان به ذرة من الفضائل التي ذكرت لأنصفنا؛ جرح والده والدي، والده الذي ازدرى من فوق عرشه المنيع، من حني ظهره رجاء فضل جناب الملك الجاحد. لذا يجب علينا، نحن أبناء الرجلين، أن نكون أعداء أيضا. ينبغي له أن يعرف أنني لن أنسى جراحي؛ وينبغي له أن يخشى انتقامي!»

وبعد بضعة أيام من وصوله، انساب ساكنوا الأكواخ الوضيعة، ليزيدوا ضخامة تيار شعبيته المتدفق لمقابلته؛ حتى برديتا، على خطبتي المفعمة بالتقريع، انسلت قريبا من الطريق لترى مهوى الأفئدة. ومما قادني للجنون ما رأيت من احتفالات أهل الريف، وهم في أبهى ثيابهم، ينحدرون من التلال قاصدين

الجمع الكبير تحت ظل الغيم؛ وقولهم وهم ينظرون باستغراب لي وللصخور من حولي ويهتفون «يحيا الإيرل!». لم أعد ليلا إلى سكني برغم المطر والبرد، ذلك أني أيقنت أن كل كوخ يرن بتمجيد أدريان؛ فكان تنمل أطرافي وألمُها غذاء لمقتي؛ بل منعشا لي، لما بدا كسبب يضاف لأسباب كرهي لعدوي الغافل. كان بغضي خالصا له، وصببت تركيزي على كونه ابن ذلك الرجل، وغفلت عن إمكانية جهله بخسيس فعل والده. وطرقت رأسي المتصدع صارخا: «ينبغي أن يصله خبر هذا الأمر! سأنتصر لنفسي! ولن أُعذب كجرو عاجز! سأريه أني، وإن كنت معدم المال والرفيق، لن أخضع للظلم!»

كبرت هذه الظنون الخاطئة بمرور الأيام والساعات. وكان كل ثناء عليه، وما أكثره، كالطعن في صدري. كان الدم يغلي في عروقي كلما رأيته ممتطيا حصانا أصيلا؛ وبدا الهواء مسموما بوجوده، وحتى لساني الإنجليزي بدا كرطانة غريبة، ذلك أن كل جملة حولي كان تقرن إما باسمه أو بفضله. تقت لإطفاء لهيب قلبي بارتكاب جرم يحيي الكراهية فيه. إذ كان أشد الأشياء وقعا على نفسي هو أنه لم يتكلف إظهار معرفة بوجودي وشعوري تجاهه.

وسرعان ما عرف الجميع حب أدريان لقضاء وقته في الحديقة.

لم يخرج للصيد أبدا، إنما قضى ساعات متأملا الحيوانات الرائقة الأليفة التي ملأت الحديقة، آمرا بمزيد من العناية بها. وكان هذا مدخلي لخطة الانتقام، والتي استفدت فيها من كل توحش عشته من قبل. عرضت على ما تبقى من أصحابي، وكانوا أعتاهم وأشدهم، اقتحام حديقته للصيد، إلا أنهم أعرضوا عن المجازفة؛ فبقيت وحيدا لإنجاز خطة الانتقام. لم يستشعر القوم تخريبي أول الأمر؛ فأمعنت في التخريب، مكسرا للأغصان، وموثقا الجريمة بالدماء وخطوات الأقدام التي دلت حراس الحديقة علي. فتنبهوا وألقوا القبض علي، ثم أودعوني السجن. دخلت الزنزانة المظلمة منتشيا بالنصر، محدثا نفسي: «أحس بي الآن»، صحت، «وسيحس مرارا وتكرارا!». ولم يمض على دخولي الزنزانة يوم حتى أطلق سراحي بأمر من الإيرل، كما أبلغت. شعرت بأنه طرحني من أعلى ذروة الشرف. وظننت أنه يستخف بي؛ وعزمت أن أشعره باستخفاف أكبر مني تجاهه، وكرهت منه العقاب والرحمة على السواء. وفي الليلة التي تلت، سجنت من جديد، ليعاد إطلاق سراحي؛ وأعدت الكرة في الليلة التي أعقبتها، ودخلت الحديقة. ففاق غضب الحراس مني، غضب سيدهم. وكان قد أمرهم بأن أساق إليه إن أمسكوا بي من جديد؛ وظنوا أن رأفته بلغت حدها وأنه سينزل بي عقابا مستحقا لما اقترفت. إلا أن قائدهم أراد أن

يبرد غليله مني قبل أن يقتادني لسيده.

كان الوقت متأخرا، وكلفني حذري البالغ في التحرك وقتا أطول من المرات السابقة؛ وانتابتني نوبة فزع حين أبصرت انقشاع الليل أمام الفجر. حبوت فوق السراخس قاصدا عتمة الأشجار، ولما غردت الطيور فوقي لفضحي، وتلاعب هواء الفجر العليل بالأغصان فوقي، ظننت أن الأقدام ستحيطني قريبا. تسارعت دقات قلبي مع اقترابي من السياج؛ وضعت يدي عليه، وقبل أن أقفز للطرف الأخر، وثب علي اثنين من الحراس كانا كامنين لي: لكمني أحدهما فأوقعني أرضا، وأتبع اللكمة جلد بالسوط. نهضت حاملا سكينا في قبضتي؛ ووجهت ضربة لذراعه اليمنى الممدودة، مصيبا يده بجرح عميق. ارتفعت صرخات ألمه، وشتائم صاحبه، التي قابلتها بصيحات ضارية، في أرجاء الوادي؛ وأضاف ضوء النهار الأخاذ عدوا آخر إلى صراعنا الصاخب. واستمررنا في التصارع إلى أن صاح الحارس الجريح، «الإيرل!». وثبت من قبضة الحارس المحكمة، لاهثا لالتقاط أنفاسي؛ وتراجعت إلى شجرة لأحمي ظهري بينما لم تفارق عيناي الغاضبتان المتعدين علي. كانت ملابسي ممزقة، وكذلك ملابسهم، ويدي مصبوغة بدم الرجل الذي جرحت؛ ممسكا بيد، بطيور ميتة، غنيمتي التي نلتها

بمشقة بالغة، وبالسكين باليد الأخرى؛ وعلى وجهي مثل دلائل الجريمة التي غطت الآلة الحادة التي أمسكت؛ وبدوت جامحا وقذرا، كأكثر الناس توحشا وهمجية بطولي الفارع وعضلاتي المفتولة.

ذعرت لسماع اسمه، وتسارع الدم الجاري في عروقي إلى وجهي؛ لم أره من قبل، وظننت أنه شاب متغطرس وأن حديثه لي، إن تنازل وتحدث إلي، سيكون توبيخا مشحونا بالغرور والتعالي. وكان ردي جاهزا؛ توبيخ معد بدقة سلفا، ليصيبه في مقتل. إلا أن مظهره، حين بدا مصحوبا بنسيم غربي لطيف، قشع عني الغضب؛ كان فتى وسيما، فارعا، ونحيلا، ذا وجه ينم عن نبل ورهافة حس؛ وزادته أشعة الشمس الساقطة على شعره الذهبي ألقا فوق ألقه. «ما هذا؟» صاح قائلا. هب الحراس للدفاع عن موقفهم؛ فقاطعهم: «اثنان من الرجال ضد فتى، يالله العار!» ثم توجه إلي: «فيرني» قال «ليونيل فيرني، أولسنا نتقابل لأول مرة؟ ولدنا لنكون أصدقاء؛ ولا أحسبك سترفض هذه الصداقة التي ورثنا، والتي أظنها ستجمعنا من الآن فصاعدا، على الرغم من الفرقة المؤسفة التي كانت بيننا؟»

بدت عيناه الثابتتان تجاهي، أثناء حديثه، وكأنهما تقلبان صفحات روحي، وشعر قلبي الموحش الحاقد بأثر الرقة وهي

تخالطه؛ بينما هز صوته العذب أعماقي. هممت بالإجابة، وتقدير كرمه، وقبول صداقته؛ إلا أن الكلمات أبت أن تطاوع الجبلي الجلف؛ وكنت لأمد يدي له، لولا أن منعني ما كساها من إثم. أشفق أدريان على تلعثمي: «تعال معي» قال، «لدي الكثير لأخبرك به؛ تعال معي إلى المنزل، ألست تعرفني؟»

«نعم،» قلت هاتفا، «أظن أنني أعرفك الآن، وأرجو منك أن تغفر جرمي».

ابتسم أدريان؛ وبعد أن وجه أوامره للحرس، جاء إلي؛ وشبك ذراعه بذراعي، ثم مشينا إلى القصر.

مؤكداً لم يكن نسب أدريان -بعد كل ما قلت- السبب وراء استباحته لقلبي له منذ أول لقاء. ولم أكن وحدي من شعر بكمال خصاله. إذ أذهل أدبه ووعيه الجميع. وأتم ذلك، ذكاؤه، وحيوته، وروحه الطامحة دائما إلى فعل الخير. وعلى حداثة سنه، كان متشربا للعلم وذا باع في الفلسفة. ما أضفى سحرا لا يقاوم على حديثه من الآخرين، حتى ليبدو وكأنه موسيقي ملهم، يعزف على قيثارة الروح، ليسمع نغما سماويا لا يمتّ لهذا العالم؛ وعزَّزت روحه حضور جسده النحيل؛ كان كل ما فيه عاقلا؛ قد تسقطه

ضربة بريشة لنحالته؛ بيد أن ابتسامته كفيلة بترويض أسد جائع، أو إقناع فيلق كامل بإلقاء أسلحته عند قدميه.

قضيت النهار معه. ولم يذكر شيئا من الماضي، أو أيا مما بدر مني، في البداية. ولربما أراد أن يهدئ من روعي، وأن يمنحني وقتا لألملم شتات نفسي. تحدث عن أمور عامة، وأشياء أخرى لم تخطر ببالي من قبل. جلسنا في مكتبته، فطفق يحدثني عن حكماء اليونان وقصصهم، وعن سطوة حكمتهم على قلوب وعقول الرجال. كانت الغرفة مزينة بتماثيل نصفية للعديد منهم، فحدثني عن كل شخصية منهم. شعرت بخضوعي له أثناء حديثه؛ وأن كل اعتداد وبأس فيّ سكن للسان هذا الفتى أزرق العينين. وفتحت أبواب الحضارة لي بيده، والتي ظننت في توحشي أنها حرام علي، وأحسست إذ وطئتها أنني وطئت مكاني الذي أنتمي إليه.

وحين حل المساء، عاد إلى الماضي. «لدي قصة لأرويها» قال «وكثير من التوضيح فيما يخص الماضي؛ قد تساعدني باختصاره. هل تتذكر والدك؟ لم أسعد بلقائه، إلا أن اسمه علق بذكرياتي الأولى، رسخ في ذاكرتي كمثل لأنبل، وألطف، وأكثر الرجال سحرا. لم تكن ظرافته إلا انعكاسا لصفاء سريرته، وإيثاره للآخرين على نفسه، تاركا القليل لنفسه.

تشجعت لسماع هذا المديح، فانطلقت أجيب على أسئلته المتعلقة بوالدي وما أتذكر منه؛ وشرح لي بالمقابل أسباب تقصير والده وإهماله لرسالة والدي. فحين حفت الأزمات بوالده أثناء حكمه، وضاقت به الحلول، تمنى وجود والدي ليقف عقبة في وجه زوجته، أو يكون مبعوثه للمجلس. ومنذ أن ترك لندن في تلك الليلة المشؤومة، عقب خسارته، لم يبلغ الملك أي خبر عنه؛ وحتى حين بذل كل جهده، بعد سنين مرت، لم يجد له خبرا. فتشبث بذكراه بأسى بالغ، وأوصى ابنه إن قابله أن يسعفه ويكرمه بكل ما يستطيع، وأن يؤكد له أن صداقته ظلت حية برغم البعد والغياب.

بلغت رسالة والدي التي لم تفتح من قبل، يد أدريان قبيل زيارته إلى كمبرلاند، وكان تسلمها من ابن النبيل الذي وعد والدي بإيصال الرسالة إلى الملك، بعد أن وُجدت، صدفة، مطروحة جانبا في كومة من الأوراق القديمة. اطلع أدريان على الرسالة باهتمام بالغ، ووجد فيها روح والدي التي طالما سمع عنها. فعرف منها البقعة التي التجأ إليها والدي، ومحل وفاته؛ وعرف أيضا بوجود أيتامه؛ فقضى جل وقته منذ أن وصل إلى ألسووتر، إلى حين لقاءنا هذا، في الاستعلام عنا، والترتيب لمصالحتنا، تمهيدا للقاء.

جبر كبريائي أسلوبه في الحديث عن والدي، وبلاغته في ذكر محاسنه، وامتثاله لوصية والده. وانتابتني مشاعر لم أعهدها من قبل، مشاعر احترام، وإعجاب، وحب، لِما رأيت من سلوكه وتعابيره. ولمس سحره قلبي الصلد، فغمرته مشاعر صافية خالدة. تصافحنا قبل فراقنا ذلك المساء: «ينبغي لنا أن نلتقي مجددا؛ زرني غدا». قبضت تلك اليد الكريمة؛ وحاولت أن أجيب؛ إلا أن جهلي لم يُقدم لي إلا «ليباركك الرب!» ملتهبة بالحماسة، وانطلقت بعيدا، تنتهبني مشاعري الجديدة.

لم يقر لي قرار. فقصدت التلال، تلفها ريح غربية، وتعلوها النجوم البارقة. ركضت غير مبال بما أسفل مني، عليَّ أن أُريح روحي المضطربة بإنهاك جسدي. وجال بفكري أن «هذه هي القوة الحق! لا بأس الأطراف، أو الضراوة، أو جرأة القلب؛ إنما الرحمة والعطف». توقفت بعد برهة، ضاما يدي، وبحماسة المهتدي الجديد إلى الحق صحت «ثق أنني أيضا سأصير حكيما وخيّرا يا أدريان!»، ثم خررت منهكا باكيا.

استعدت رباطة جأشي، بعد أن مرت عاصفة الانفعال. واستلقيت على الأرض، مقلبا أفكاري في الماضي، وحياتي قبل اليوم؛ باسطا آثام قلبي، واحدا تلو الآخر، لأقف على همجيتي،

وفظاظتي، ودناءتي. بيد أني لم أشعر بالذنب، إذ أحسست بأني ولدت من جديد؛ وألقت روحي عن كاهلها ثقل الخطايا، لتبدأ حياة جديدة من الحب والطهر. لم يعد من حاجز لتلك المشاعر الرقيقة التي فاضت من وحي هذا اليوم؛ كنت كرضيع يتأتئ خلف أمه، وصِيغَت روحي من جديد، بيد لم أطلبها ولم أستطع لها مقاومة.

كان هذا بداية صحبتي مع أدريان، ولا أزال أذكره كأسعد يوم في حياتي. وبدأت منذ ذلك الحين أخطو نحو آدميتي. إذ عشت من قبل في البرزخ الفاصل بين الإنسان العاقل ذي الأخلاق، والحيوان. ووُلدت مشاعري الطيبة لتقابل كرم، وحكمة، ولطافة صديقي الجديد. وأبهجه -لما به من خير نبيل- أن يشارك كل ما عنده من معرفة وثروة مع ابن صديق والده، الذي طال هجره؛ ابن ذلك الرجل الذي حفلت طفولته بذكر محاسنه.

تنحى الملك الراحل عن السياسة بعد تنازله عن الملك، إلا أن حياته العائلية لم تكن سعيدة. إذ لم تكن الملكة السابقة ذات ميل للحياة العائلية الهادئة، ووجهت ما كان بها من وقاحة وإقدام تجاه زوجها الذي أبغضت، ولم تأبه بإخفاء مشاعرها تجاهه. وكان الملك قد أبعد كل قريب منه امتثالا لها، ولم يقرب أحدا كما

أرادت. ومع قلة الأصحاب تلك، كانت صحبة الملك الوحيدة طفله الصغير؛ والذي لم يخيب ظن والده بما به من مواهب. فلم يكل من سماع قصص والده المكررة عن الماضي، والتي كان والدي أحد أهم أطرافها؛ فعرف وحفظ بداهة والدي؛ وأحيط بكل ما فيه من ذكاء، وسحر، بل حتى مساوئه، بهالة من القداسة دافعها الشوق والندم؛ ورثى الملك فراقه ببالغ الأسى. ولم يفلح كره الملكة الناضح بالمرارة والسخرية والازدراء لوالدي في تحطيم إعجاب ابنها به، فكانت كلما رمت والدي باستهجان محاسنه مع مساوئه على السواء، ذاكرة كرم الملك معه مقابل تبذيره وعدم مبالاته، وانجذابه وسهولة انقياده للملذات؛ يفشل رميها ويسقط. ولم يفلح غضبها في ثني أدريان عن تخيل والدي، والذي تخيله كما قال، كأنبل، وألطف، وأكثر الرجال سحرا. فلا استغراب إذن من أنه حين علم بوجود ذرية ذلك الرجل الفذ، بادر إلى التخطيط لإغنائهم، ولأن يشاركهم كل ما يملك. وحتى حين وجدني راعي غنم فظ همجي، ولصا، لم يحد عن لطفه. ومع شعوره بأن والده ملام على ما حل بنا من فاقة، وأنه ملزم بتعويضنا؛ سره أن يرى فيّ تألق روح سامية تحت رداء التوحش، وشجاعة؛ وأن فيّ من والدي ما يؤكد أن فضائله لم تمت معه. وأيا كان ما توسم فيّ من فضائل، فقد قرر صديقي النبيل أنها أهل للحياة لا للموت.

انكببت -إثر لقاءاتنا- على التعلم والاطلاع على كل ما أثرى عقله. وكان ذهني المتوقد لا يمسك معلومة أو فكرة إلا حفظها. وكنت أهدف أول الأمر إلى مضاهاة والدي، ولأن أُبينَ نفسي جديرا بصحبه أدريان. ولكن سرعان ما استيقظ فضولي وحبي الجاد للمعرفة، لأقضي أياما وليال في القراءة والدراسة. كنت على علم بظواهر الطبيعة، كتغير الفصول، واختلاف الليل والنهار، والأرض. إلا أنه هالني ما عرفت حين رفع عني حجاب الجهل، ورأيت الكون، لا كما يراه الناظر بحواسه، بل كما يراه الحكماء. وأيقظ الشعر والشعراء، والفلسفة وأهلها ومباحثها، أفكاري النائمة وزادوا عليها.

لبسني شعور ذلك البحار الذي رأى سواحل أمريكا لأول مرة، وهبّ يخبر كل رفاقه عما كشف من مجهول. إلا أنني فشلت في إشعال الحماسة للعلم في صدر أي أحد، كما توقدت في صدري. وحتى برديتا، عجزت عن فهمي. فقد عشت سابقا في عالم مادي مجرد، إلا أن الغطاء كُشف عن بصري لأرى عالما أعمق مما كنت أرى. بينما لم يزد كل ذلك لبرديتا شيئا، إذ لم يتوقف ذهنها عن تجديد خيالاتها لتبقى منشغلة بها. واستمعت إلي كما كانت تستمع من قبل لقصص مغامراتي، وكانت تبدي

اهتماما أحيانا ببعض ما أذكر؛ إلا أنها لم تر المعرفة، كما كنت أراها، جزءا أساسيا من كيانها، كالحواس.

كان اتفاقنا في محبة أدريان، ولكن، لأنها لم تخرج من طفولتها بعد، لم تقدر شمائله ولم تأنس مثلي بصحبته وحديثه. كنت ملازما له طوال الوقت. وكان مشتملا على عذوبة ووعي في شخصه، يحيلان أحاديثنا إلى أحاديث سماوية. كان مرحا كقبرة تصدح في برجها الشاهق، راقيا كنسر، وبريئا كعين حمامة. استطاع أن يبدد حزن برديتا، وأن ينزع الشر من طبيعتي المشوهة. كانت ذكرى الماضي، ورغباتي المضطربة، وصراعي مع كل حي حولي، كمثل الكابوس؛ وشعرت بأني تغيرت إلى حد صرت فيه امرئا جديدا، بحس وعقل جديدين أبدلا نظرتي للكون. بيد أن الأمر لم يكن كذلك؛ إذ بقي بأسي شديدا كما كان، وحبي للمشاركة والمغامرة أيضا. ولم تفارقني صفات الفتوة، كما فارقت شمشون حين قصت دليلة شعره، وقت أرخى رأسه في حجرها ؛ إنما تهذبت وصرت أكثر إنسانية من ذي قبل. ولم يحصر أدريان تعليمي على الفلسفة والتاريخ، بل استخدمهما كسبل لإرشادي إلى مسك زمام نفسي وترويض طبعي المتهور وروحي المتوحشة، وفتح لي قلبه وعقله لأرى ما يرى وأعقل ما يعقل.

سعت الملكة السابقة لغرس خططها الطامحة في عقل ابنها منذ نعومة أظفاره. ورأت فيه عبقرية فذة ومواهب لا يضاهيها أحد؛ واشتغلت على تنميتها لتحصد ثمارها في المستقبل. فشجعت حبه للمعرفة، وشجاعته المتهورة؛ بل أبدت تسامحا مع شغفه بالحرية، راجية أن يكون هذا الشغف طريقه لحب السيادة. وعملت على زرع الكراهية، ورغبة الانتقام، فيه تجاه أولئك الذين حملوا والده على التنازل عن الملك. ولكن، خاب مسعاها. فعلى ما حل به من خسارة الجاه، إلا أن فكرة أن يحكم الشعب نفسه أثارت مخيلته، فاعتنق مبادئ الجمهورية باكرا. ولكن، والدته لم تيأس. فقد كانت تحمل إصرارا، ورباطة جأش، وصبرا، يضاهي ما بها من حب للسلطة والملك. فكرست نفسها للنظر إلى حال ابنها. وما زالت تحاول به، مادحة تارة، وموبخة أخرى، باحثة عن حباله التي تمكنها منه؛ ومع قلة الحنان في طبعها، إلا أنها بنت أحلام المستقبل على ابنها، وظلت موقنة من ظفرها به في النهاية. أما الإقصاء الذي يعيشه الآن، فله أسباب أخرى.

أقامت الأرملة النبيلة، برفقة ابنائها في وينزر؛ ولم تفتح باب الزيارة سوى لأنصارها، وبعض الزائرين من بلدها الأم، وبعض الوزراء الأجانب. وكان على رأس أولئك، سفير اليونان

إلى إنجلترا، الأمير زيمي؛ وابنته الأميرة الشابة، التي قضت أكثر وقتها في وينزر، إيفادني. وكانت هذه الأميرة المرحة الذكية، ملاذ الكونتس من مشاغل الدولة . ولم تظهر لها شيئا من قول أو فعل يشي بخططها لأبنائها، مع أن إيفادني كانت دمية لا خوف منها؛ ولم يغير وجودها المرح شيئا من سير حياة وخطط الكونتس.

كانت إيفادني بعمر الثامنة عشر. وعلى أنهما أمضيا معظم وقتهما في وينزر، إلا أن صغر سن أدريان دحض كل شك عن العلاقة بينهما. إلا أن أدريان كان ذا قلب متوهج بالعاطفة، سابق لسنه، فهام في حب ذات الجمال الاغريقي التي أشرقت على حياته. أما أنا، الأكبر من أدريان والذي لم أحب من قبل، فقد استغربت بذل صاحبي لقلبه. ولم يكن في عاطفته تجاهها غيرة أو اضطراب أو ريبة؛ بل كان حبا خالصا. ودارت حياته حول وجود محبوبته؛ ونبضه موافقا لنبضها. كان هذا سره الأثير، كونه يحب ويُحَب، رأى الكون فرصة للعيش مع حبه؛ ورفض أن يحدد المجتمع، أو ما يدور من أحداث، سعادته من تعاسته. بيد أن عالم العلاقات هذا كان غابة تعج بالسباع. وفي غمرة أهواله، وأغواره الموحشة، قد يجد المرء طريق خلاصة المفروش بالورود ليصل إلى النعيم المنشود. مثل طريق البحر الأحمر العاصم للأقدام من

البلل، المحفوف بالهلاك من جانبيه .

وا أسفاه! لأي شيء أذكر سوء حظ ذلك الشاب الفريد؟ أي غريزة فينا تسوقنا نحو الألم والأسى؟ لم نُخلق للبهجة؛ وإن سعينا للظفر باللذيذ من المشاعر، ينتهي دوما بالظفر بالخيبة، التي تتقاذفنا كيفما تشاء. وأي رجل كان أحق بأن ينعم بالحب ولذته منه؟ ولربما كتبت له السلامة لو أن قلبه ظل نائما لبضع سنين أخر؛ إلا أنه صحا قبل أوانه، فكان فتيا تنقصه الحكمة؛ كبرعم أزهر في الشتاء، فقتله الصقيع.

لا أتهم إيفادني بنفاق أو تضليل مُحبها؛ إلا أنني عرفت من أول رسالة قرأت لها، أنها لم تبادله الحب. وعلى كونها أجنبية، كانت تقطر بلاغة، فخطت رسالتها بإتقان رائع؛ بل وحتى ثني الورقة نم عن ذوق رفيع، لم يخف حتى علي، وأنا الجاهل بمثل هذه الأمور. كانت رسالتها مفعمة باللطف، والعرفان، والعذوبة، ولكن، لا أثر للحب فيها. وأي فتاة تحب، وهي في الثامنة عشر، شخصا يصغرها بعامين؟ قارنت رسائلها الرزينة برسائل أدريان الملتهبة. كان يسكب روحة في الكلمات؛ لتنطق الرسالة بحبه الآخذ له. وأنهكته الكتابة، فكان يذرف الدمع أحيانا لفرط ما فيه.

كان وجهه مرآة لروحه، وكان الستر والإخفاء أبعد ما يكون عن طبعه الصادق الصريح. وكثيرا ما رجته إيفادني أن لا يخبر والدته بما بينهما؛ إلا أنه لم يُطق كتم الهوى. إذ كشفته عيناه، وفطنت عين الملكة المتيقظة إلى الأمر. ولكنها، لما بها من حرص، لم تذع الأمر وأبقته في سرها، وعجلت في إبعاد ابنها عن تلك اليونانية الفاتنة. فأرسلته إلى كمبرلاند. إلا أن إيفادني دبرت سبيلا خفيا للتواصل عن طريق الرسائل بينهما. وهكذا، كان المراد من إبعاد أدريان، فصلهما، إلا أنهما زادا قربا. ولم ينقطع حديثه لي عن محبوبته الأيونية. وزادها بهاء وجلالا، تاريخ بلدها العتيق، ونضاله الحديث. وما كان إذعانه لهذا البعد إلا لأنها طلبت إليه ذلك؛ وإلا فقد كان مستعدا أن يعلن ارتباطه بها أمام إنجلترا بأسرها، وأن يقف أمام والدته، بعزم ثابت. إلا أن حذر الأنثى دفع إيفادني إلى عدم التعويل على صدق عزمه، إلى أن يكبر. وقد يكون دافعها هو عدم الرغبة في تحدي العالم لأجل شخص لم تكن تحب، حقا. أو على الأقل، ليس كما أنبأها قلبها أن ستحب رجلا آخر يوما ما. وكان منه أن أطاع أمرها، وأمضى عامه في كمبرلاند.

الفصل الثالث

كانت أشهُر وأيام وساعات ذلك العام مليئة بالسعادة. إذ بنت صداقتي، التي غذاها الاحترام المتبادل، والإعجاب واللطف، بيتا من البهجة في قلبي، الذي كان قبل عهد قريب، موحشا كبراري أمريكا المقفرة، وهائجا كرياح البحر العاتية. وامتزج، لحظِّي، عطشي للمعرفة مع محبتي لأدريان ليشغلا عقلي وقلبي. وأي مسرة تضاهي متعة أحاديث الشباب؟ سواء كنا متوسطين البحيرة في قاربنا، أو مجانبين الجداول وشجر الحور في الوادي أو أعلى التلال، متحررا من عصا الرعي، ومشغولا بصحبة وأفكار وليدة أسمى من تلك الأغنام، كنت إما قارئا أو مستمعا لحديث أدريان؛ منتشيا بحديثه، سواء كان عن حبه أو عما ينفع الناس من نظريات. وكان طبعي المتمرد يعاودني أحيانا، من حب للخطر، وكره للانضباط؛ إلا أن ذلك كان في غياب أدريان؛ أما أمام عينيه اللطيفتين، كنت طيعا كابن خامسة ممتثل لأوامر والدته.

وبعد أن أمضى عامه في ألسووتر، زار أدريان لندن، ثم عاد محملا بخطط لمنفعتنا. أخبرني بوجوب مباشرة حياتي العملية الآن، وأن أي تأخير في فترة التدريب الضرورية لن يزيدني إلا

ضجرا. كان مدركا أن مستقبله سيكون حافلا بالصراعات، وأرادني بجانبه. وحتى أكون أهلا لذلك، كان علينا الافتراق حينها. فتوسط لي في ترقية لأكون سكرتير السفير الخاص في النمسا، مقدرا أنه خير مكان لبداية حياتي العملية. لأعود إلى بلدي، بعد عامين، بشهرة تسبقني.

أما برديتا، فخصص لها أن تصحب إيفادني لتتتلمذ على يديها. مراعيا، كعادته، احتياجاتها في تلك الفترة. كيف لي أن أرفض طلبا لهذا الصديق الكريم؟ لم يدر في خلدي أن أرفض طلبه؛ وأقسمت لنفسي، أن أكرس حياتي، ومعرفتي، وقوتي، وكل فضل أبلغه، كان هو مسبغه علي، له وحده.

و كما وعدت نفسي، سافرت نحو وجهتي بحماسة متوقدة، كطفل حالم بالمستقبل. قائلا لنفسي، بأن أيام الطفولة انقضت، وأنه آن لي أن أباشر حياتي. وحتى في الجنة، يقول فيرجل، يتوق الشباب الى الشرب من البحر الذي يعيدهم إلى هذه الرحى المهلكة . ورغباتهم الجامحة هذه، التي تتركهم في نهاية المطاف أسوأ حالا من مدين معدم، هي سبب ندرة الشباب في الجنة. وإذ يحذرنا أحكم الفلاسفة من مهالك الدنيا، وغوايتها للرجال، وأهواء أنفسنا، نركب غير آبهين، مراكبنا المتهالكة، ناشرين

أشرعتها، ومادين مجاديفها، قاصدين إخضاع بحر الحياة. وقلما ترى من في زهرة شبابه، مريحا مركبه إلى الشاطئ راضيا بجمع الأصداف المتناثرة فوقه. فترى، قبل انقضاء النهار، هشيم مراكبهم على الشواطئ. إما محطمين قبل بلوغ البر، أو متجهين إلى صخرة تقودهم الأمواج إليها ليتحطموا هناك، ويموتوا، لا باكٍ عليهم.

لتعذرني الفلسفة! فالحياة أمامي وأعجل لاقتحامها. يحدوني الأمل، والحب، والمجد، والطموح، وروح لا تعرف الخوف. وما مضى، على حلاوته، فقد مضى؛ وأجمل ما في الحاضر أنه مقبل على التغيير، أما المستقبل فأحدده أنا. أيَفزع قلبي، ويسرع الدم في عروقي هذا الطموح؟ لا، بل لِما أرى خلف غيوم هذا الليل من فرص تنتظر قطفي لها.

تمهل! فلي أن أحلم في رحلتي هذه، وأن أبلغ ذروة الحياة محلقا بأجنحتي. إذ أقف في قاعدتها طاويا أجنحتي، وسلمها الشاهق أمامي، ملتزما بصعوده درجة درجة، حتى أبلغ ذلك الهيكل الباهر.

وقل لي! أي فرصة أتيحت؟

تأملني ببهائي الجديد. دبلوماسي، وفرد في حلقة يقصدها طالبوا المتعة، في مدينة بهيجة؛ شاب واعد، المفضل عند السفير. أشياء بدت غريبة وخلابة لراعي غنم كمبرلاند. وبأنفاس حبستها الدهشة، دلفت إلى العالم البهيج، الذي كان أهله كزنابق أبهى من مجد سليمان، لا تتعب ولا تغزل.

وسرعان ما ابتلعتني دوامة الطيش؛ ناسيا ما قضيت من ساعات في المطالعة، وصحبة أدريان. إذ لم يزل يسيطر علي حب جذب الأنظار، وامتلاك ما يشتهي الناس. فأسكرني ونال ثقتي، ما رأيت من جمال، وكمال أدب من الرجال والنساء. وأطربتني كل ابتسامة كنت أنال؛ وشعرت بماء الحياة يتدفق فيّ، وازددت قربا من صنم المتعة. ونعمت بانفلات غرائزي الحيوانية، وكنت كل ليلة أستعجل بدء يوم جديد حتى أعود إلى ضلالي. وأحاطت الأضواء الباهرة، والأجسام النضرة، ونغم المعازف الشهواني، أحاسيسي بحلم لذيذ.

أوليست هذه السعادة بعينها؟ نشدت أهل الأخلاق والحكمة. سألت إن كان استغراقهم في التأمل لساعات يبلغ بهم مبلغ نشوة الغر في المتع والملذات؟ وهل يعميهم بريق أعينهم الحالمة، كما يعمي لمع الشهوات عيني الشاب، أو تحلق فيهم فلسفتهم الجافة إلى متع شاهقة، كالتي يبلغها ذلك الغارق في عربدة الشباب؟

والحق أنه لا عزلة النساك ولا صخب النشوة المعربد، إلَّا مرض لقلب الإنسان. فمن واحدة نجني قلق التفكير، ومن الأخرى نجني التخمة. فيخر العقل تحت وطأة التفكير، ويفر إلى صحبة عباد المتعة من الفجار. ولا ثمرة ترجى من لطف هؤلاء العقيم، أو من ابتساماتهم الكاشفة عن الهلاك أسفلها.

كذلك شعرت حين عاود قلبي الخيبة، والتعب، والوحدة، ليفرغوه من متعه. وطلبت روحي الواهنة من تبث له شكواها؛ وحين لم تجد، استسلمت لذلك، ومع كثرة الطيش البهيج في أولها، لا أذكر أيامي في فيينا إلا أياما كئيبة. وكما قال غوته: لا سعادة في الشباب إلا لمن أحب. لم أحب، ولكن كانت تجتاحني رغبة بأن أكون شيئا للآخرين. وصرت ضحية للصد وللغنج الذي لم أطل منه شيئا، فانكفأت على نفسي، وخيل لي أن كدري يمنحني الحق لأن أكره العالم. فعدت إلى الوحدة؛ والتجأت إلى كتبي، وظمئت إلى صحبة أدريان.

كان التشبه -وما هو في أقصى أشكاله إلا وجه سام من أوجه الحسد- مطلقا تلك المشاعر السامة. إذ لمع في تلك الفترة اسم رجل من أبناء بلدي، وحاز على إعجاب العالم. كانت مواضيع الساعة أعماله التي أتم، وتخمين ما ينوي فعله. ولم يكن غضبي

لنفسي، إنما لشعوري بأن الثناء الذي يناله هذا النجم، مقطوف من إكليل مقدر لأدريان. لكن يجب علي أن أذكر أمر صاحب الشهرة هذا، والمفضل في العالم، بشيء من التفصيل.

كان اللورد ريموند الوريث الوحيد لأسرة نبيلة فقيرة. ومنذ صغره كان مدركا لنبل أصله، وساخطا على ضيق يده. فكان أول ما شغله هو رغبته في الغنى؛ ولم يفكر بأخلاقية السبيل، ما دام مؤديا إلى الغنى. كان متغطرسا، لكن تعروه رعدة أمام من يعلوه سلطة؛ طموحا، لكن يأبى أن يظهر ما به من طموح؛ طالبا للشرف، ومنكبا على الملذات. هكذا بدأ حياته. إلا أنه، وعلى أعتابها، قوبل بإهانة، حقيقية أو اعتبارية؛ رفض لم يتوقعه؛ خيبة لم يقو كبرياؤه على تحملها. رزح تحت ثقل إهانة لا يستطيع أن يردها؛ فغادر إنجلترا مقسما أن لا يعود إليها، حتى يعظم أمره، لترى تلك التي احتقرته ما وصل إليه.

فصار مغامرا في حروب اليونان. وأبرزته شجاعته الفائقة وعبقريته الفذة. ليصير بطل الشعب الأثير. ولم يمنعه من تبوء المناصب العليا في ذلك البلد إلا مولده الأجنبي، وعدم رغبته بفك ارتباطه ببلده الأم. وعلى أن البعض حاز مناصبا ورتبا أعلى منه، إلا أن مكانته فاقت كل ذلك. فقد قاد جيوش اليونان إلى النصر؛ ونسب كل نصر إليه. وكان ما أن يظهر، حتى تخرج بلدات

بأسرها لتحييه؛ وكتبت أغاني جديدة، عن مجده، وبسالته، وكرمه، لتضاف إلى أغانيهم الوطنية.

وعقدت هدنة بين الأتراك واليونانيين. ووافق ذلك حصوله، من حيث لا يحتسب، على ثروة هائلة في إنجلترا، وعليه أن يعود مكللا بالمجد، ليأخذها قبل أن تمنع عنه. فطار قلبه لهذا الأمر. أي شيء تغير في ريموند الساخط؟ بعد أن كان يرى أن القوة المستمدة من المال نيرا حول رقاب أصحابها. إلا أن السلطة هي ما يطمح إليه؛ وكل ما يرمي إليه هو تعظيم ذاته. وفي السر أو العلن، كان هدفه واحدا؛ أن يحوز أعلى منصب في بلده الأم.

شغل بالي أمره. وما حدث بعد عودته إلى إنجلترا، زاد من حدة مشاعري تجاهه. ففضلا على ما به من المزايا، كان ريموند ذا وسامة فائقة؛ ومحط إعجاب الجميع من رجال ونساء. كان لبقا، وصاحب لسان معسول، وضليعا بكل ما هو ساحر. أي أمر سيُعجز هذا الرجل في العالم الإنجليزي المحموم؟ وتوالت الأحداث؛ إلا أن الأخبار انقطعت عني لانقطاع أدريان عن الكتابة لي، ولاقتضاب رسائل برديتا. وشاع أن أدريان قد -كيف لي أن أكتب مثل هذه الكلمة- جن، وأن ريموند صار المفضل عند الملكة السابقة والمقدر ليكون زوج ابنتها. بل زاد أن أحيا هذا النبيل الطامح

مطالب آل وينزر للملك، وأنه نظرا لاعتلال أدريان ولأنه سيتزوج من أخته، قد يحط تاج الملك فوق رأس ريموند الطامح.

ملأت هذه القصص الآفاق؛ وجعلت من مقامي الطويل في فيينا، بعيدا عن صديق شبابي، أمرا لا يحتمل. فآن لي أن أبر بقسمي، وأن أقف بجانبه، حليفا وداعما حتى الموت. وداعا يا بلاط اللذة؛ ويا دسائس السياسة؛ ويا حمق الشهوات. ولتحيا إنجلترا! أمي إنجلترا، تلقفي ابنك! يا مجمع آمالي، والأرض التي تشغلها المسرحية الوحيدة التي تشدني، روحا وقلبا، لمتابعة فصولها. جرني صوت لا يقاوم، وقوة خفية إلى هناك. وبعد غياب دام سنتين، حططت رحالي على شاطئها، مسلوب الجرأة عن طرح أي سؤال، ومرتعبا من أي ملاحظة. وكانت زيارتي الأولى إلى أختي، القاطنة في كوخ صغير، هدية أدريان، على أطراف غابة وينزر. لأعرف منها حقيقة ما حل بحامينا؛ ولِمَ انسحبت من تحت جناح الأميرة إيفادني، وإلى أي مدى أثّر هذا المتطاول، ريموند، في حظوظ صديقي.

لم يسبق لي زيارة أرجاء وينزر؛ فأدهشتني خصوبة وجمال الأرض في ذلك الحين، وتزايدت دهشتي مع اقترابي من الغابة القديمة. حيث نمت أشجار البلوط العظيمة، وأزهرت، ثم تآكلت بفعل القرون، مشكلة حدا طبيعيا لأقصى اتساع بلغته الغابة؛ ودل

السياج المحطم والجنبات المهملة على أن المكان ترك للنباتات الفتية، حين نمت في أوائل القرن التاسع عشر، والتي تقف الآن باسقة مكتملة النمو. كان مسكن برديتا المتواضع عند حواف أقدم قسم؛ وأمتد أمامه مرعى بوابة الأسقف، والذي بدا لا متناهيا من ناحية الشرق، وحدّه من الغرب غابة الكنيسة وبستان مياه فرجينيا. وظلّلت أشجار الغابة المهيبة الكوخ من الخلف، ورعت الغزلان أسفلها، وأضاف شكل الأشجار المتآكلة ضدا جميلا لشكل الأشجار الفتية. ووقفت تلك الأشجار، التي نمت منذ عهد قريب، منتصبة باسقة، وبدت متأهبة للقادم من الزمن؛ بينما تعاضدت الأشجار العتيقة الكسيحة، مستندة على بعضها البعض، تلطم النسمات أغصانها الركيكة، وبدت كجمع تصفعه الرياح.

أحاط سياج متواضع بحديقة الكوخ، والـذي بدا بسقفه المنخفض خاضعا لهيبة الطبيعة، ومنكمشا أمام البقايا العظيمة لهذه البقعة المنسية. وزينت الورود، أطفال الربيع، حديقتها ونوافذها؛ وحتى مع وضاعة المكان، حكت أناقته عن حسن ذوق ساكنيه. دخلت المكان بقلب خافق؛ وحين وقفت عند المدخل سمعت نغم صوتها، كما عهدته، والذي أكد لي قبل أن أراها أنها بخير.

وفي لحظة ظهرت برديتا؛ ووقفت أمامي متفتحة بأنوثة الشباب،

مختلفة وغير مختلفة في آن واحد، عن فتاة الجبال التي تركت. لم يزد الغموض في عينيها عما كان، ولم تتغير تعابير وجهها؛ إنما كان هناك تحسن في ملامحها؛ فسكن التعقل ناصيتها؛ وزينت ابتسامتها وجهها بأرق حس، أما صوتها الخفيض، فكأنما ضبط بالحب. أما هيئتها فكانت أكثر الأشكال أنوثة؛ إذ لم تكن طويلة، ووهبتها طفولتها الجبيلة خفة الحركة، لذا لم يكن لوقع أقدامها صوت حين خفت للقائي. حين تفارقنا، ضممتها إلى حضني بحنان بالغ؛ والآن نلتقي من جديد، لتصحو تلك المشاعر؛ حين لمح أحدنا الآخر وقد كبرنا بعد هذه السنين، مرت ذكريات الطفولة. ومكثنا ساكنين للحظة؛ قبل أن تفيض مشاعر الأخوة في قلوبنا، ونرتمي في أحضان بعضنا.

بعد أن هدأت فورة العواطف، جلسنا هادئين متحدثين عن الماضي والحاضر. وأشرت إلى برودة رسائلها؛ إلا أن الغموض انجلى عن أصل هذا التغير حين شرحت لي الأمر. إذ نمت فيها مشاعر جديدة لم تستطع أن تكاتب فيها شخصا لم تعرفه إلا في طفولتها؛ ولكن بعد أن اجتمعنا من جديد، عاد دفء المشاعر بيننا من جديد. ذكرت لها مفصلا ما جرى لي من أمور في غربتي، ثم أخذت أسألها عما جد من أمور في غيبتي، وعن أسباب غياب أدريان، وعزلتها.

كان ترقرق الدموع في عينيها واحمرار وجهها، حين ذكرت صديقنا، دليلا على صدق ما بلغني من الأخبار. ذلك أني لم أصدق تلك الأخبار بادئ الأمر لفداحتها. حلت الفوضى في عالم أفكار أدريان السامية، وعاث الجنون في عقله، وصار لا يملك من أمر روحه شيئا؟ آه يا صديقي الحبيب، لم يكن هذا العالم السقيم منتجعا لروحك الرقيقة؛ قدمت عقلك إلى إنسانيته الكاذبة، فعرَّاه من أوراقه قبيل الشتاء، وطرحه عاريا مرتعشا تحت رحمة أعتى الرياح. أفَقدت تلك الأعين معانيها، أم باتت نظرتها تخبر فقط عن جنونها؟ ألم يعد ذلك الصوت يحكي نغما بديعا؟ ما أفظع ذلك! حجبت عيني عن تخيل تلك الشناعة، وشهَد انهمار دمعي على تحسري على ما به من خراب.

ذكرت برديتا بالتفصيل، كما طلبت، الظروف التعيسة التي أدت إلى ما حدث.

نذر أدريان نفسه الصادقة والموهوبة بكل نعم الطبيعة من ذكاء متعال، والذي لم تشبها شائبة -إلا أن يجتمع فيها كل ذلك الخير- لحبه لإيفادني. فأودع روحه، وأحلامه، وأفكاره لخير البشرية، بين يديها وأمنها عليها. وكان بلوغه فجر سن الرجولة وما صاحبها من حيوية جديدة مُثبِتا له على خططه لا مغيرا لها؛ وترسخ حبه

لإيفادني، وزاد يقينه كل يوم بأن طريقه التي اختار ليست بالطريق السهلة، وأنه أهل لنيل مكافأته، لا تقديرا من الأصحاب، بل بأن تعطف إيفادني على قلبه وتبادله الحب، لتسكن كل آلامه ويعوضه حبها عن كل تضحياته.

وعاش وحدته، بعيدا عن أعين الناس، مفكرا ومراجعا لأفكاره في إصلاح حكومة إنجلترا، وما فيه صلاح الشعب. ويا ليته كتم هواه حتى يملك سلطانا يعزز قبوله. ولكنه تعجل مخافة الانتظار لسنين، فقدم الصدق والتهور. ولم يكفه رفض خطط والدته، بل أعلن عن نيته استخدام نفوذه لتقويض سلطة النبلاء، ليشيع عدلا أكبر في توزيع الثروة، ويقدم نظاما أمثل لحكومة جمهورية تحكم انجلترا. ورأت والدته نظرياته كخيال جامح في أول الأمر. إلا أن حسن ترتيبه للأمور، واحتجاجه على والدته، جعلها تخافه، على ما ظل بها من شك. وحاولت أن تثنيه عن مقاصده، فلما رأت ثباته، بدأت بكرهه.

و الغريب أن عدوى كراهيته انتشرت. فكانت حماسته للخير المنشود؛ وازدراؤه لمركزية السلطة بحرارة وطيش، نقيضان لما اعتاد عليه الناس؛ فأوجس محبو المادة منه خوفا؛ ولم يفقه الشباب الجاهلون حديثه الأخلاقي المتسامي، فأبغضوه لاختلافه عنهم. ولم يكن لإيفادني دور يذكر. فقد رأت حسنا في إعلانه

ودفاعه عن إرادته، وتمنت أن يستوعبها العامة. إلا أنها خلت من الحماسة، وصدت عن مشاركة عار الهزيمة مع وطني طريح. كانت مدركة لطهر أهدافه، وكرم أخلاقه، وحبه لها؛ وأكنّت له احتراما كبيرا. وبادل احترامها بحب بالغ، فكانت أمله الأغلى.

وفي تلك الأثناء عاد اللورد ريموند من اليونان. ولا أحد أكثر تضادا منه وأدريان. إذ كان ريموند بلا ريب، على ما فيه من تناقضات، رجلا ماديا. وكان ذا أهواء طاغية؛ تتحكم به أحيانا، لتحيد به عن بعض مصالحه، إلا عن خطه في تسخير كل شيء لخدمة ذاته. ونظرته إلى بنية المجتمع كآلة داعمة لشبكته في الحياة. والأرض إنما بسطت ليمشي هو عليها؛ والسماء رفعت ليستظل هو بها.

بينما رأى أدريان أنه جزء من الكون العظيم. وأنه قريب من كل البشر، بل من كل شيء في الطبيعة؛ فما الجبل والسماء إلا أصدقاء له؛ وما النسيم ولا النباتات إلا رفقاء لعبه؛ وما هو إلا صورة على صفحة هذا الكون، ممتزجة بكل موجود. وكانت روحه متناغمة، ومسخّرة لخدمة الخير.

ها هما يلتقيان، لينشأ بينهما النفور. فبينما ازدرى أدريان ضيق نظر أهل السياسة، احتقر ريموند الخير في رؤى المثاليين. وبمقدم

ريموند، هبت العاصفة التي دمرت حدائق بهجة أدريان، وملاجئه التي ظن أنها مأواه الآمن من الهزيمة والذل. إذ صار ريموند، مخلص اليونان، والعسكري اللبق، الحامل في سيماه ملامح كل ذلك، والغريب على محيط إيفادني، أغلى ما ترى ، فوقعت إيفادني بحب ريموند، منجرفة بما اعتراها من مشاعر، لم تتمهل لتتحقق منها، أو لتخفف من حدة هذه المشاعر التي طغت عليها وصارت المتحكمة في مملكة قلبها. وكان نتيجة خضوعها لتأثيره، أن تبدلت مشاعرها تجاه أدريان إلى النفور. فصارت متقلبة تجاهه؛ وتغير طبعها الرقيق نحوه إلى فظاظة وجفاف قاس. ولكنها ما إن تحس بأفعاله المثيرة للشفقة ، حتى تعود إلى سابق عهدها من اللطف تجاهه. بيد أن هذا التذبذب زلزل أعماق روح الشاب الحساس؛ وظن أنه لا حظ له من هذه الحياة، إذ لم يعد حب إيفادني له؛ وشعر بكل ما فيه بالعاصفة توشك أن تقوض كونه الهزيل، الذي وقف مرتعدا ينتظر هبوبها.

ورأت برديتا، التي كانت تسكن مع إيفادني حينها، ما يحتمل أدريان من عذاب. أحبته كأخ أكبر حنون؛ يرشدها ويحميها ويعلمها، بعيدا عن سطوة الأبوة الطاغية. ووقَّرَتْ فضائله، بينما نظرت بعين المقت والاحتقار صوب إيفادني لما صبته من سهام الكآبة والحزن على رأسه، لأجل شخص لم يعرها أي اهتمام.

وفي وحدته تلك اعتاد أن يبث حزنه خفية لأختي، بينما شطر صراع التجلد والألم عقله. ولم يكن طويلا، للأسف، حتى تغلب أحدهما. ولم يكن للغضب نصيب منه. وممن سيغضب؟ قطعا ليس من ريموند، الجاهل بما سبب من آسى له؛ ولا من إيفادني، التي بكت روحه لروحها دما -يا للفتاة المسكينة- كانت خاضعة لا قاهرة، وحتى في خضم كربه، كان يأسى لمستقبلها. ووقعت إحدى رسائله مرة في يد برديتا؛ فوجدتها ملطخة بأثر الدمع -و من أحب مثله كان ليترك مثل ذلك الأثر.

«يبدو أن الحياة ليست كما وصفها الكتاب الشاعريون؛ رقصة نرقصها، نتحول فيها من وضع إلى آخر قبل أن نصل إلى ختامها، ويستقر كل راقص إلى السكون. فحيثما تكون حياة، ثَمَّ تقلب. فكل فكرة مقرونة بأمها، وكل حركة بسابقتها. ولا حزن أو فرح يموت عاقرا، فهي في توالد مستمر، ناسجة سلسلة الحياة.

يوم ينادي على أخيه؛

واصلا صرخة بصرخة،

وألما بألم.

وما الربة الملازمة للإنسان إلا الخيبة؛ جاثية على أعتاب الزمن قبل أن يولد، لتدير أحداث المستقبل قبل أن تجيء. وما أن سكن قلبي في صدري؛ تضاعف الجمال في العالم حولي، مشعا بما يلقى من ألق من وهج روحي. آه، أمن أجل ذلك يقترن الحب والتلف في حلمنا الفاني هذا؟ وكأننا حين نفتح قلوبنا لذلك الوحش لطيف الشكل، لا يدخل إلا مصطحبا رفاقه ليعيثوا فسادا بما كان يمكن أن يكون لهم سكنا.»

تدهورت صحته لما ألم به من آسى، ثم انهار عقله لنفس الأسباب. وساءت طباعه، فصار عدوانيا أحيانا، وملتفا بصمت كئيب أحيانا أخرى. وفجأة، تركت إيفادني لندن إلى باريس؛ فتبعها، وأدركها قبل أن تبحر السفينة؛ ولا أحد يعلم ما دار بينهما، إلا أن برديتا لم تره منذ ذلك الحين؛ إذ عاش متخفيا في مكان غير معروف، حيث يقوم على رعايته أشخاص اختارتهم والدته.

الفصل الرابع (أ)

في اليوم التالي، زار اللورد ريموند كوخ برديتا في طريقه إلى قلعة وينزر. ووشى احمرار وجه أختي وبريق عينيها بسرها. كان مهذبا؛ فبادرنا بتحية لبقة، ناشرا ألفته سريعا بيننا. وتفرست في وجهه المتبدل أثناء حديثه، والذي بدا جميلا في كل أحواله. بدت عيناه هادئتين أغلب الوقت، وكانتا تقدحان شررا أحيانا؛ ذا بشرة شاحبة؛ تجلّى العناد الشديد في وجهه؛ كانت ابتسامته ساحرة، إلا أن ازدراءه المتكرر أبقى شفتيه -اللتين كانتا ككرسي عرش الجمال في أعين النساء- مزمومتين أغلب الوقت. كان صوته الهادئ عادة، مجفلا أحيانا، لحدّة ناشزة فيه، والتي تُظهر أن هدوء صوته أمر جاء بالتدريب لا بالطبع. وهكذا بدا مليئا بالتناقضات، لينا ومتغطرسا، رقيقا وضاريا، حنونا ومتجاهلا، ووجد بأسلوب غريب طريقه إلى عاطفة النساء وإعجابهن؛ فملاطفا إياهن حينا، وحينا مضطهدا لهن، متربعا على عرش قلوبهن كل وقت.

أراد ريموند أن يبدو أنيسا في الوقت الراهن. ظريفا، مرحا، لماحا في حديثه، جاعلا من كل جملة ينطقها قبسا من نور. وسرعان ما تبدد كرهي له؛ وأخذت أراقبه وبرديتا، مستحضرا كل ما

سمعته عنه من شر. إلا أنه بدا صادقا، وساحرا، إلى حد أنساني كل شيء، إلا الاستمتاع برفقته. وفي معرض حديثنا عن دخولي عالم السياسة في إنجلترا، والذي كنت أنوي الانخراط فيه قريبا، حكى لي بعض القصص، واصفا بعض الشخصيات؛ فكان حديثه ثريا متنوعا، ومسترسلا، وماتعا لكل أحاسيسي. إلا أن فوزه باحترامي وودّي لم يكتمل لزلة واحدة. إذ أشار لأدريان باستخفاف وتشف كعادة أمثاله من الماديين. فأحس بتعكر جو الجلسة، وسعى ليتلافى ذلك؛ إلا أن عاطفتي تجاه أدريان لم تسمح بأن يمر مساس به هكذا، لذا قلت بحزم، «اسمح لي أن أعلق بأني متعلق بإخلاص بإيرل وينزر؛ فهو صديقي وولي نعمتي. أوقر نبله، وأوافق آراءه، ويؤسفني جدا مرضه الحالي، والذي أثق بأنه لن يطول. لذلك، لا يسرني أن أسمع ذكره إلا مقرونا بالاحترام والحب».

فأجاب ريموند؛ ولم يحاول استرضائي بإجابته. ورأيتُ في قلبه إصغارا لكل مخلص لكل ما هو ليس مادي. «كل أمرئ»، قال، «يرنو لأمر ما، لحب أو لمجد، أو لمتعة يقضيها؛ أما أنت فحلمك الصداقة، وأن تكون مخلصا لمجنون؛ فإن كان ذلك شأنك، فلك كل الحق باتباعه».

وبدا عليه الانزعاج مما أعتنقُ من فكر، فكان في تشجنه الذي

ظهر على وجهه للحظات شفاء لبعض حنقي. وأكمل، «سعداء هم الحالمون، لذلك لا يرجون استيقاظا! وكنت لأحلم لو استطعت! لولا أنني أعيش في هذا العالم الفسيح المبهرج؛ الذي يزيح جماله الأحلام عني. وحتى طيف الصداقة، فارقني، والحب» فانقطع صامتا؛ ولم أستطع تمييز ما زم شفتيه عنه، أهو ازدراؤه لتلك العواطف، أم لنفسه لكونه عبدا لها.

كان هذا أول لقائي به. وازداد قربي واعجابي بمواهبه المتعددة مع مرور الأيام، إذ دمج مواهبه تلك بفصاحته وظرافته، فضلا عن غناه الفاحش الذي صيّره مرهوبا، ومحبوبا، ومكروها، أكثر من أي رجل آخر في إنجلترا. هيّأ لي نسبي، وعلاقتي السابقة مع أدريان، وعملي السباق مع السفير كسكرتير خاص، والآن علاقتي الطيبة مع اللورد ريموند، دخولها سهلا إلى حلقات السياسة في انجلترا. وكان أول ظهور لي في البرلمان في أمسية أشبه بالحرب الأهلية؛ إذ كان كل حزب عنيفا ولاذعا وغير متراجع في طرحه. وكان البرلمان منقسما إلى ثلاثة شُعب، النبلاء، والديموقراطيين، والملكيين. وكان هذا الحزب الأخير أوشك أن يموت بعد أن أعلن أدريان ميله للنظام الجمهوري، إذ فقد القائد والمرشد؛ إلا أن بروز اللورد ريموند كقائد لهم، أعاد الحزب حيا وأقوى مما كان عليه.

كان بعضهم ملكيا لهوى وحب قديم للمؤسسة، والبعض الآخر لخشيتهم من استبداد حزب الشعب، واستئثار النبلاء بالسلطة. فصار أكثر من ثلث الأعضاء منطويين تحت جناح ريموند، واستمرت أعدادهم بالازدياد. واتكأت آمال النبلاء على تفوق ثروتهم وتأثيرهم؛ بينما استمد المصلحون قوتهم من الشعب؛ فكانت النقاشات حادة، وازدادت حدتها في اجتماع كل حزب لتنظيم أعماله. وانتشر التنابز بالألقاب المخزية، بل وحتى التهديد بالقتل؛ وضجت البلاد بالاجتماعات المفتوحة للعامة؛ كيف لهذا الأمر أن ينتهي بغير الحرب؟ وحين أوشكت نيران الحرب أن تشتعل، خفتت حدتها؛ لغياب الجيش عن المشهد، وكراهية الكل للعنف، ما عدا في كلامهم، وللأدب الجم بل وحتى الصداقة التي كانت بين رؤوس الأحزاب في لقاءاتهم الخاصة. ولأسباب كثيرة انجذبتُ لمتابعة هذه الأحداث، بقلق شديد، لحظة بلحظة.

ولم يسعني في هذا الوقت إلا أن أرى حب برديتا لريموند؛ والذي أحسبه يكنّ لابنة فيرني حبا وعطفا. إلا أنني كنت على علم باستعجاله أمر زواجه من وريثة وينزر المحتملة، متحمسا لما سيجلب له ذلك من مزايا. فصادق كل أصحاب الملكة السابقة؛ ولم يمر أسبوع دون زيارته لها في وينزر.

لم أر أخت أدريان من قبل. سمعت أنها أنيسة، وجميلة وفاتنة. ولكن لمَ ينبغ لي أن أراها؟ أحيانا يدفعنا شعور لا تفسير له بتفادي أي تغيير قد ينجم عن حدث ما؛ وأيا كان ذلك التغيير، فالخوف يدفعنا للتهرب من ذلك الحدث. لذا كنت دائما أتهرب من لقاء ذات النسب العالي. وكانت كل شيء بالنسبة لي ولا شيء؛ فكان مجرد ذكر اسمها كفيلا بإجفالي وإرعادي؛ والنقاشات المتعلقة بزواجها من ريموند كانت تثير في ألما شديدا. وحدثت نفسي، بأنه في غيبة أدريان، لابد وأن آيدرس الجميلة ضحية لخطط والدتها الطامحة، وأنه من واجبي أن أحميها من هذه السطوة الجائرة، وأجنبها التعاسة، وأضمن حرية خيارها، والتي هي حق لكل إنسان. ولكن، كيف لي أن أقوم بذلك؟ ستكره، بنفسها، تدخلي. لذا آثرت البعد على أن أكون محل كرهها، اخترت تفاديها حتى لا أكشف نفسي لها وللعالم الهازئ، وألا ألعب لعبة الحب، كالأحمق إيكاروس .

وفي أحد الأيام، بعد مضي شهور على عودتي إلى إنجلترا، تركت لندن لزيارة أختي. كانت صحبتها سلوتي وبهجتي؛ فتتهلل روحي عند اقتراب لقائها. وكان حديثها ماتعا ونافعا؛ في خلوتها المشبعة بعطر الزهور، والمزينة ببهاء المزهريات القديمة،

ولوحاتها التي نسخت من أجمل لوحات رفائيل، وكوريدجو، وكلود، حتى لأظن نفسي في خلوة من حكايات الجن، بعيد عن دنس وضوضاء السياسيين، ومجونهم. وفي تلك الزيارة لم تكن أختي وحيدة؛ ولم أخب في معرفة صاحبتها: فقد كانت آيدرس، التي أحببتها بجنون قبل أن أراها.

أي كلمات تصف بهجة الناظرين، وأي لغة أو تعبير من منطوقي يفي جمالها، وعقلها؟ كيف لجمع الكلمات البائس أن يصف هالة المجد المحيطة بها، والنعيم المصاحب لها؟ فأول ما يصعقك حين ترى جمالها هو الحسن والتفتح؛ فترى الصدق في محياها، والتواضع في عينيها، ولطفا سماويا في ابتسامتها، وتثنِّي جسدها الفارع النحيل كالحور في النسيم الغربي. مشيتها كمشية الربات، أو كملاك مجنح هبط توا من الفردوس؛ وخالط وجهها اللؤلؤي حمرة نضرة؛ وكان صوتها كصوت ناي خفيض. والأسهل أن توصف بما يغايرها. إذ مع كل ما ذكرت من كمال أختي؛ كانت آيدرس مغايرة لها تماما. فبرديتا، حتى حين تألف، كانت منطوية خجولة؛ بينما كانت آيدرس صريحة وحسنة الظن بالناس. فالوحدة ملجأ الأولى، لتتحصن من الخيبة والأذى؛ بينما تسرح الثانية في رابعة النهار، مؤمنة بأن ضررا لن يصيبها.

وقد وصف وردزورث محبوبته بشيئين من الطبيعة، ولطالما بدت أبياته تلك متباينة لا منسجمة :

بنفسجة تجانب صخرة

تخفى على الأعين

بهية كنجم في السماء

يشع وهجا وألقا

فبرديتا كالبنفسجة، تخشى أن تثق حتى بالهواء، محتجبة عن الأنظار، لولا أن يخونها براعة جمالها الداعي لمن يرغب بنعيم رؤيتها أن يتجشم عناء الوصول. أما آيدرس فهي كالنجم، اللامع في ظلمة ليلة عطرة؛ متأهبة لتنير العالم بهجة، ومتحصنة ببعدها عن أي دنس، وعن كل ما هو ليس سماويا مثلها.

وجدت آية الجمال هذه في مخدع برديتا، مأخوذة بحماس الحديث مع صويحبتها. وحين رأتني أختي، قفزت وهي تسحبها من يدها قائلة، «إنه هنا كما تمنينا؛ ها هو ليونيل، أخي.» وتبعتها آيدرس، وهي تنظر إلي بعينيها الزرقاوين كالسماء، وبلطف أخاذ

قالت «وهل يخفى القمر؟ فأخي يحتفظ بصورة غالية عليه تحمل اسمك. فيرني، أنت خليص أخي، وأعدك صديقا لي، وأحسبك أهلا لثقتي».

أكملت والدمع يبلل خداها، «أصدقائي، أرجو أن لا تستغربوا طلبي العون منكم في أول زيارة لي، وبثي لكم آمالي ومخاوفي. إذ لا أجرؤ على الحديث بمثل هذا إلى غيركم؛ لِما سمعت من ثناء عليكم من كل نزيه، ولأنكم كما أسلفت، أصدقائي، لصداقتكم لأخي. ولا أعرف سبيلا لي سوى الضياع، إن رفضتم مساعدتي!» ورفعت ناظريها، بينما أخرستنا الدهشة؛ وكأن ما بها من مشاعر فاضت رغم عنها، وصاحت «أخي العزيز، أدريان سيء الحظ! كيف أقوى على ذكر مآسيك؟ لا ريب أنه بلغكم ما يتداول من خبر؛ وربما صدقتم ما يقال؛ إلا أنه ليس مجنونا! ولو أقسم لي ملاك من أسفل عرش الإله أنه مجنون، لما صدقته أبدا. إنما هو مظلوم، ومغدور، ومسجون. أنقذوه! يجب عليك فعل ذلك يا فيرني؛ خلصه من حبسه أينما كان في هذه الجزيرة؛ جده وخلصه من ساجنيه، أعده لنفسه ولي! فلا أحد لي في هذه الأرض سواه!»

ملأني رجاؤها الحار، الطافح بعذوبة وحماسة، بالدهشة والتعاطف؛ ثم أضافت، بصوت يهز المشاعر، «أتقبل أن تقوم

بهذه المهمة؟» فأقسمت، بصدق وحماس، بأن أكرس نفسي حيا أو ميتا لإعادة أدريان إلى سابق عهده. ثم تناقشنا حول الخطة التي سأتبع، وأي وسائل قد تعيننا على معرفة مكانه. وفي أثناء انشغالنا بالنقاش، دخل اللورد ريموند بدون سابق إنذار: فرأيت ارتعاد برديتا وشحوب لونها، واحمرار خدي آيدرس. ولربما أدهشه أمر اجتماعنا هذا، أو أزعجه كما ظننت؛ إلا أن شيئا من ذلك لم يبدو عليه؛ فحياني وجليساتي بأدب. وبدت آيدرس ذاهلة للحظة، ثم بادرت قائلة بعذوبة مفرطة، «لورد ريموند، أثق بشرفك وطيبتك».

فابتسم بغرور، وحنى رأسه للأمام، وأجاب بنبرة متسائلة، «أحقا تثقين بذلك، ليدي آيدرس؟»

حاولتْ أن تعرف ما يفكر فيه، ثم أجابت بوقار، «كما تحب. من الأفضل أن لا يبوح المرء بسره لأحد».

فرد: «المعذرة إن كنت أخطأت، فثقتك بي من عدمها تعتمد على بذلي أقصى جهدي لتحقيق رغباتك، أيا كانت».

ابتسمت آيدرس شاكرة، ثم قامت للرحيل. وطلب اللورد ريموند الإذن بمرافقتها إلى وينزر، حيث قالت أنها ذاهبة، ومضوا

سوية. وبقيت وأختي وحيدين كأحمقين ظنا أنهما وجدا كنزا، حتى كشف النهار أنه معدن رديء -كذبابتين تافهتين تلعبان تحت أشعة الشمس حتى التقطتهما شبكة عنكبوت. انثنيتُ على النافذة، وتابعت هذين المخلوقين البهيين، إلى أن تواريا في طريق الغابة؛ ثم عدت إلى جلستي. أما برديتا فكانت ساكنة؛ ناظرة إلى الأرض، شاحبة الخدين، والشفتين، جامدة متصلبة، يدمغ الأسى قسماتها. مددت يدي مشفقا لأمسك بيدها؛ لكنها سحبت يدها منتفضة، مكافحة لتلملم نفسها. توسلت إليها أن تكلمني: «ليس الآن» ردت، «و لا تحدثني بالأمر مجددا، عزيزي ليونيل؛ فلست تعرف شيئا. أراك غدا؛ أما الآن فإلى اللقاء!»، فقامت تاركة الغرفة؛ لكنها توقفت عند الباب، واستندت عليه، وكأن أفكارها المزدحمة سلبتها القوة على الوقوف، وقالت، «سيعود اللورد ريموند على الأرجح. هلا أبلغته بأن يعذرني اليوم، فأنا مرهقة. سأراه غدا إن شاء، وأنت كذلك. ومن الأفضل أن تعود معه إلى لندن؛ ليتسنى لك السؤال عما اتفقنا عليه بخصوص إيرل وينزر، وزرني غدا قبل رحتلك ،إلى ذلك الحين، وداعا!»

تكلمتْ بتلعثم، وأتبعتْ كلامها بتنهيدة ثقيلة. أبديت موافقتي على طلبها؛ ثم تركتني. فشعرت كأنني قذفت من هذا العالم

المنتظم، إلى الفوضى، والظلام، والتناقض والضياع. ولم يعد أمر زواج ريموند من آيدرس محتملا؛ ولكن، كان انفعالي أشد، مع كونه شديدا منذ أن ولدت، على نحو غريب، وغير معقول، لِما أحسست من بؤس برديتا. ماذا ينبغي علي أن أفعل؟ لم تودعني سرها؛ ولكن لا أستطيع طلب تفسير من ريموند، بدون المخاطرة بكشف خبيئتها. سأعرف الحقيقة منها غدا -وفي تلك الأثناء- وبينما كنت منشغلا بأفكاري، عاد اللورد ريموند. سأل عن أختي؛ فأبلغته بما أرادت. وبعد أن تأمل لحظة في الإجابة، سألني إن كنت عائدا إلى لندن، وراغبا بمرافقته: وأجبت بالإيجاب. كان باله منشغلا، وخيم عليه الصمت في أغلب الطريق؛ وقال أخيرا، «أعتذر عن شرودي؛ فاقتراح رايلاند سيقدم الليلة، وأفكر بردي عليه».

كان رايلاند رئيس حزب الشعب، رجلا عنيدا، وبليغا بطريقته الخاصة؛ وقد حصل على إذن بتقديم مقترح لاعتبار أي محاولة لتغيير النظام الحالي في إنجلترا، أو تغيير قوانين الجمهورية، كخيانة. وكان هذا هجوما موجها إلى ريموند وخططه الهادفة إلى إرجاع الملكية.

طلب إلي ريموند أن أرافقه إلى المجلس ذلك المساء. وتذكرت أمر جمعي للمعلومات التي تخص أدريان، ولكوني

سأكون مشغولا بذلك، اعتذرت. «لا»، قال مرافقي، «سأكفيك شغلك. ستذهب للاستفسار عن إيرل وينزر. أستطيع الإجابة على ذلك الآن، يقيم في مقر إقامة دوق آثول، في دنكيلد. حيث مسه الاضطراب، سافر مرتحلا من مكان إلى آخر؛ إلى أن وصل إلى خلوة ذلك المكان الشاعرية ورفض أن يغادره، لذا قمنا بالترتيب مع الدوق لإبقائه هناك».

آلمتني نبرة عدم المبالاة التي كان يتحدث بها، وأجبته ببرود:

«أنا ممتن جدا على هذه المعلومات، ستفيدني كثيرا».

«ينبغي عليك ذلك، فيرني»، قال، «و إن بقيت مصمما على ما تنوي سأساعدك. إنما أولا، أرجوك، اشهد معي نتيجة نقاش الليلة، ونصري الذي سأحقق، إن صح لي أن أسميه كذلك، إذ أخشى أن يكون هذا النصر هزيمة لي. ماذا عساي أن أفعل؟ أغلى آمالي يبدو وشيكا. فبإعطاء الملكة السابقة آيدرس لي؛ وعدم أهلية أدريان لمنصب الإيرل، سيؤول المنصب لي، ومنه أصنع مملكتي. أستطيع تحقيق ذلك، بعون الإله؛ ولن ترضى إيرلية وينزر التافهة، من يرثها ويرث كل حق متعلق بها غيري. لن تنسى الكونتس أنها كانت ملكة من قبل، ولن ترضى بترك إرث حقير لأبنائها؛ بنفوذها

ودهائي سنحي الملك، وسيكلل هذا الجبين بالجواهر الملكية.
-أستطيع فعل ذلك- أستطيع الزواج من آيدرس».

و انقطع فجأة عن الكلام، وأظلم محياه، وتبدلت ملامحه، وكأنه يصارع انفعالا في داخله.

سألته «أتحبك الليدي؟»

«يا له من سؤال،» أجاب ضاحكا. «ستحبني بالتأكيد، كما سأحبها، عندما نتزوج».

«ستبدأ متأخرا في ذلك»، قلت ساخرا، «إذ أن الزواج مقبرة للحب عادة، لا مهد له. إذن، ستحب الليدي، ولست تحبها الآن؟»

«لا تستجوبني، ليونيل؛ تأكد من أني سأقوم بواجبي تجاهها. أما الحب! فيجب أن أحصن قلبي منه؛ بأن أطرده من برجه القوي، يجب أن تتوقف نافورة الحب عن التدفق، ويجف ماؤها، وتموت كل الأفكار والمشاعر الملازمة له، وأعني بذلك الحب الذي يسيطر علي، لا الذي أسيطر أنا عليه. آيدرس فتاة رقيقة، جميلة، وعذبة؛ يستحيل أن لا يكنّ المرء ودا لها، وهذا ما أكنّه لها مخلصا؛

إنما ليس الحب -ذلك المستبد المروض للمستبدين- الحب الذي تمكّن مني قبلا، والآن تمكنت منه؛ تلك النار الجائعة، والوحش الذي لا يروض، الأفعى ذات الأنياب... لا... لا... لا أريد شيئا من ذلك الحب. أجبني، يا ليونيل، أتقبل زواجي من هذه الليدي الشابة؟» ووجَّه عينيه نحوي، بينما هاج قلبي في صدري.

فأجبت بصوت هادئ -و ما أبعد ما كان يجيش بداخلي عن الهدوء- «أبدا! لا يمكن لي أن أوافق على زواج الليدي آيدرس من رجل لا يحبها».

«لأنك تحبها».

«هلا كففت عن هذه السخرية، يا سيدي اللورد؛ لست أحبها، ولا أجرؤ على ذلك».

أكمل بغطرسة، «على الأقل، هي لا تحبك. لن أتزوج حتى من ملكة، ما لم يكن قلبها خاليا. ولكن، يا ليونيل! الملك كلمة مهيبة، وما أحسن المفردات التي تُظهر بهاءه. أولم يكن أعظم الرجال في الأزمنة الغابرة ملوكا؟ الاسكندر كان ملكا؛ وسليمان، أحكم الرجال، كان ملكا، نابليون، كان ملكا؛ ومات قيصر في سبيل أن

يصير ملكا، وكروموبل التطهيري وقاتل الملك، طمح إلى المُلك. تنازل والد أدريان عن صولجان إنجلترا المكسور أصلا؛ أما أنا فسأقيم الزهرة المنكسرة، وأُوصل أطرافها المقطعة، وأُعليها على كل زهور الحقل.

لا تستغرب كشفي لمكان إقامة أدريان طواعية. فلست أحمقَ ولا شريرا لأدعي الملك لنفسي بناء على زعم كاذب يسهل اكتشافه، كالقول بجنون الإيرل. عدت توا من عنده. إذ قررت أن أزوره بنفسي، قبل أن أقرر الزواج من أخته، لأقيِّم بنفسي فرصة شفائه. ولا شفاء لجنونه».

شهقت هلعا.

«لن أفصل لك»، أكمل ريموند، «ما رأيت من كآبة. ستراه بنفسك لتحكم؛ إلا أنني أخشى أن تكون هذه الزيارة، عديمة النفع له، وعذابا لا يطاق بالنسبة لك. فقد أثقلت روحي منذ ذلك الحين. فعلى دماثته ونبله، حتى وهو فاقد لعقله، وعدم تعلقي به مثلك، إلا أنني مستعد للتخلي عن حلمي في الملك، ويدي فوق ذلك، مقابل رؤيته سليما معافى من جديد».

اختلط صوته برحمة عميقة.

«يالك من كائن مبهم»، هتفت، «أي طريق ستتخذ، في هذه المتاهة التي تبدو تائها فيها؟»

«فعلا، إلى أين؟ إلى تاج ذهبي محلى بالجواهر، أشتهي؛ بيد أنني لا أثق بالتاج، مع أنني أحلم فيه نائما ومستيقظا، وكأن شيطانا يهمس في أذني بلا كلل بأن التاج الذي أسعى له ما هو إلا قبعة مهرج أحمق، ينبغي لي أن أدوسه، وآخذ بدلا عنه ما يعدل كل تيجان العالم، شرقا وغربا».

«وأي شيء ذاك؟»

«ستعرفه إن اخترته؛ أما الآن فلست أجرؤ على الحديث عنه، أو حتى التفكير فيه».

عاد إلى صمته لبرهة من الوقت، ثم التفت إلي ضاحكا. فحين يكون سروره خالصا من أي ازدراء، وتصطبغ ملامحه ببهجة وفرح صاف، تكون وسامته سماوية متعالية. «فيرني»، قال، «أول شيء سأفعله حين أحكم إنجلترا، هو الاتحاد مع اليونانيين، وأخذ

القسطنطينية، ثم إخضاع آسيا كلها. أنوي أن أكون محاربا، فاتحا؛ سيحجب اسمي اسم نابليون؛ وبدلا من أن يزور الزائرون قبره الصخري، سيهيمون في عظمتي، ويمجدون مآثري العظيمة».

استمعت لريموند باهتمام بالغ. أأكون أقرب الناس، لهذا الذي يحكم العالم بأسره في خياله، ويجبن عن أن يمسك بزمام أمره. والذي تعتمد سعادتي على ما سيختار ــ ومصير أغلى ما عندي. حاولت أن أتنبأ بمعنى كلماته المبهمة. لم يذكر اسم برديتا؛ إلا أن الشك لا يداخلني في كون حبها سبب تخبط قراره. ومن أحق بالحب من أختي، سامية الروح؟ ومن أحق بهذا المِلك المتوج لنفسه، من صاحبة بريق الملك؟ والتي تحبه، كما يحبها؛ على خيبة الأمل التي أضعفت عاطفتها، وطموحه الذي يصارعه.

ذهبنا سوية إلى البرلمان في المساء. كان ريموند طربا وغير مبال، مع علمه بأن طموحاته وآماله كانت على المحك في النقاش المرتقب. وحالما دخلنا غرفة الاستراحة، أذهلنا طنين الرجال، وكأنه ألف خلية نحل مجتمعة. واجتمعت زمر من السياسيين بأعين قلقة وأصوات عميقة. وبدا حزب النبلاء، أغنى وأكثر الرجال نفوذا في إنجلترا، أقل قلقا من الآخرين، لعدم الحاجة لتدخلهم في النقاش. وقريبا من المدفأة جلس رايلاند ورفاقه.

كان رايلاند ذا نسب غير مشهور وثروة فاحشة، ورثها عن والده صاحب المصانع. وشهد في شبابه عزل الملك ودمج مجلسي الشيوخ والعموم؛ فمال إلى هذه المنجزات الشعبية، وكرس حياته لتثبيتها وزيادة نفوذها. واستمر نفوذ مالك المصانع هذا في التزايد؛ ولم يكن يرى شرا في مكائد اللورد ريموند، وانضمام العديد من أشياعه إليه. إلا أن الأمر جاوز الحد. فقد هلل النبلاء لعودة هيبة الملك، كأمر قد يعيد لهم سلطانهم المفقود. وعادت محبة الملكية في نفوس الرجال، بعد أن كانت شبه ميتة؛ فصاروا متهيئين، كعبيد طائعين، لحمل نيرها على رقابهم. وبقي في نفوس الرجال بعض من مبادئ الجمهورية؛ إلا أن تلك الكلمة (الجمهورية) صارت تافهة الوقع على آذان الرجال؛ فالكثير منهم -وسيبيّن نقاش الليلة إن كانوا أغلبية يتوقون إلى بهرجة وأبهة الملك. ونهض رايلاند ليتصدى لذلك؛ مؤكدا بأن كفاحه هو ما أوصل حزبه إلى ما هو عليه؛ وأن التراخي قد مضى، وسيزيل اقتراحه هذا خيوط العنكبوت التي أعمت رجال بلده.

حين دخل ريموند غرفة الاستراحة حياه رفاقه بصوت عال. وتحلقوا حوله، ذاكرين له عددهم، وكم سينضم إليهم ممن لم يحددوا موقفهم بعد. وبعد أن أنهوا استعداداتهم؛ اتخذوا

مقاعدهم في القاعة؛ واستمر الصخب إلى أن قام رايلاند ليخطب، فعم الهدوء التام. والتفتت كل الأعين إليه حين قام بجسده الثقيل، وصوته الجهوري، وأسلوبه المدهش، على الرغم من خلوه من اللباقة. أدرت وجهي، عن ملامحه الجديدة، نحو ريموند، الذي ارتسمت ابتسامة لا تفارقه على وجه؛ إلا أن شفتيه كانتا ترتجفان إلى حد ما، وأحكم قبضته على المقعد بشدة، إلى أن برزت عضلات ذراعه.

استهل رايلاند خطابه بالثناء على حال الإمبراطورية البريطانية. واستحضر ذكريات الماضي؛ والخلافات المأساوية التي كادت أن تؤدي إلى حرب أهلية، وتنازل الملك الراحل، وتأسيس الجمهورية. ووصف الجمهورية؛ مبديا المزايا التي قدمت لكل فرد فيها، من رفعة تصل إلى حد السيادة. وقارن بين النظام الجمهوري والملكي؛ مظهرا كيف يسعى النظام الملكي لاستعباد الناس؛ بينما تسعى كل مؤسسات الجمهورية إلى رفعة الإنسان، حتى أحقر الناس، ليكون نافعا خيرا. وعرض كيف صارت إنجلترا قوية، وأهلها باسلين وحكماء، بفضل الحرية التي تمتعوا بها. وامتلأت القلوب فخرا لسماع حديثه، وتوردت الخدود بهجة لكون المرء، كل امرئ كان هناك، إنجليزيا، وأن كل منهم ساهم في ما هم

عليه اليوم من خير. وازدادت حماسة رايلاند -و اشتعلت عيناه- وتدفق صوته بحرارة. وتابع في خطابه، بأن هناك رجلا يطمح إلى تغير ما نحن عليه، وأن يعيدنا إلى الخنوع والتنافر، رجل يجرؤ على الادعاء بأنه أشرف من كل أبناء إنجلترا، ويجرؤ على تقديم مصلحته على مصلحة بلده. ورأيت وجه ريموند في تلك اللحظة وقد تغير لونه؛ فأشاح ببصره عن الخطيب تجاه الأرض؛ وتبادل المستمعون النظرات؛ بينما ملأ صوت الخطيب أسماعهم بقوة شجبه. زادت جرأة خطابه رجوح كفّته؛ فالكل يعلم أنه يقول حقا -حق يعرفه الجميع ولكن لا يشير إليه أحد. ومزق قناع الزيف عن الحقيقة التي تسترت به؛ وظهر أرب ريموند، الذي كان يدب خِفية في الأرجاء، قائما كغزال مطارد يحدق الخطر به، ورأى الكل تغير ملامح ريموند التي عجز عن كتمها. وختم رايلاند بأنه ينبغي عد أي محاولة لإعادة الملكية خيانة، ومن يحاول أن يغير شكل الحكومة الحالي، خائنا. وضجت القاعة بالتهليل والهتافات بعد أن ختم خطابه.

وبعد أن نال مقترحه تأييد الأعضاء، قام اللورد ريموند -وقد هدأت ملامحه، ورخم صوته، وسكن روعه، وبدت وسامته وعذوبته كنغم ناي هادئ، أتبعه صوت خصمه الشبيه بالأرغن.

قام وقال أنه يؤيد ما ذكره العضو المحترم، مع تعديل صغير. وعاد مرة أخرى إلى الحديث عن النزاع بين الآباء، وتنازل المَلك. وذكر نبل وعظمة آخر ملوك إنجلترا وشهرة تضحيتهِ العظيمة، في سبيل مصلحة بلده، وتجريده لنفسه من السلطة، التي كان واردا ألا يجرد منها إلا بإراقة دم رعيته -تلك الرعية التي لم تنس له ذلك، فمنحته وأسرته من المزايا ما يلازمهم إلى الأبد. فوهبوهم أملاكا واسعة، وأعلوهم ليكونوا في الصف الأول من رجال بريطانيا العظيمة. ولكن من الطبيعي ألا ينسوا إرثهم القديم؛ ولا يعقل أن يعامل وريثه، وكأنه كاذب مدع لما ليس له، في حال طالب بما هو حق له بالوراثة. ولم يقل أنه ينبغي تأييد مثل هذه المحاولة؛ إنما قال أن مثل هذه المحاولة خطأ يغتفر؛ ما دام متجنبا للحرب، وقائما بالعدل، فينظر حينها إلى خطئه بعين التساهل. وكان التعديل الذي أضافه إلى المقترح، هو أن يتم استثناء متقلد منصب إيرل وينزر من تلك العقوبة، في حال طالب بالمُلك.

ولم يكن ليختم بدون أن يلفت الحاضرين إلى بهاء وأبهة راية المملكة، وانتفاء ذلك من راية الجمهورية وروحها. وأكد أن أي فرد في مملكة إنجلترا، كان كما الآن، قادرا على بلوغ أي منصب إلا منصبا واحدا؛ ألا وهو رئيس الوزراء، إذ أن منصبه أكبر

وأجل من أن يتولاه عامي رعديد. وأي فرق شكل هذا الاستثناء؟ إذ ضَيقت المؤهلات المطلوبة في المرشحين من ثروة ونفوذ عددهم؛ بل خاف من المنصب أكثرهم لما تقدمه سنواته الثلاث من مشاكل ونزاعات، يعرف العاقل أنها أكثر من مزاياه.

أعجز عن ذكر سحر لغته وتعابيره، وسخريته الذكية والسهلة الممتنعة، والتي أعطت حيوية وتأثيرا لخطابه. ورباطة جأشه التي كانت واهنة في أول خطابه، ثم استوت، فاقت تعبيرات وجهه كل ألق؛ أما صوته فتلون، كتلون الموسيقى، وسحرها.

ولم يكن من داع للخوض في نقاشات الأعضاء بعد هذه الخطبة الساحرة. فتقدم كل عضو بخطابه، وألبس القضية ثوب الرياء، وحجب معناها الصريح بنسيج عاصفة الكلمات. ورفض الاقتراح؛ فخرج رايلاند غاضبا يائسا؛ بينما استغرق ريموند في حلمه الملكي، فرحا جذلا.

الفصل الرابع (ب)

أحقا يوجد ما يسمى بالحب من النظرة الأولى؟ وإن وجد، فما اختلافه عن الحب الناشئ عن طول النظر والعشرة؟ قد لا يكون حبا دائما؛ لكنه شديد جامح حين يحضر. إذ نمضي في دروب الحياة غير المطروقة، خالين من الفرح، حتى نلتقط خيطا يهدي سبيلنا إلى الجنة عبر هذه المتاهة. وتذوي طبيعتنا المعتمة، كمشاعل مطفأة، في فراغ لا شكل له، إلى أن تمسها النار؛ فتحيا بها، كالنور للقمر، والبهاء للشمس. وما يهم، إن كانت وليدة شرارة من قدح الصوان والفولاذ، غُذيت بعناية لتصير لهبا، وببطء مرّت إلى الفتيل الأسود، أو كانت من برق قوي حارق، يشعل منارة الأمل في لحظته. وفي قرارة قلبي، اضطرب النبض؛ ولفتني الذكريات لف العباءة للجسد من كل جانب. لم أشعر في بقية حياتي بمثل ما شعرت به في تلك الأيام. إذ انتشرت روح آيدرس فيما أتنفس من الهواء؛ ولازمت أعينها بالي؛ فأعماني بهاء ابتسامتها، وسرت مبهورا، لا كالسائر في الكسوف، أو العتمة الخالية، بل كمن غُمر بأنوار براقة فوق احتمال حواسه. ونُقش سر حياتي على كل ورقة شجر، وذرة في الكون (كما لطخ مصير هياكينث على أوراق زهرته). هي حياتي. ولم يتسن لي النظر في مشاعري تلك،

لألجمها أو أخففها؛ فكنت مأخوذا بفكرة واحدة لا أعرف سواها، أنها هي حياتي.

و لكن، قضي الأمر، فريموند سيتزوج آيدرس. ورنت أجراس الفرح في أذني؛ وخيل إلي سماع تهنئات الشعب التالية للعرس؛ إذ فاز بها النبيل الناهض كالنسر من الفقر إلى بهاء المُلك العلي. إنما لم يكن الأمر كذلك. فلم تكن هي تحبه؛ وكنت أنا من نادته بالصديق، وابتسمت له، وائتمنتني على سرها الأهم، ألا وهو استعادة أدريان. أذابت هذه الفكرة الجليد في دمي، وعاد مد الحياة في من جديد، بعد انحساره.

انتهى جدال النفس ذاك عند الثالثة صباحا. واضطربت روحي؛ فمشيت الشوارع بخطو سريع. كنت غاضبا بحق في تلك الليلة، وتصارع فيّ مارد الحب مع القنوط. وجرح قلبي ثقل وطء الحب، وصبغه دمع القنوط. وتكشّف الفجر عن صبح لا أطيقه؛ فعدت إلى مخدعي، وألقيت نفسي على الأريكة ونمت -ولست أدري إن كان نوما- إذ استمر التفكير، وصراع الحب والقنوط، واعتصرني ألم لا يحتمل.

أفقت وأنا أشعر بالخدر؛ وأحسست بضيق في صدري لم أعلم

له سببا؛ لذا، جلت في عقلي سائلا وزراءه -الذين أفاقوا- عن سبب ذلك؛ وسرعان ما تذكرت؛ وارتعشت أطرافي تحت تلك السطوة القاهرة؛ وعرفت أني صرت عبدا للحب.

فجأة، وبدون سابق إعلان، دخل اللورد ريموند شقتي. دخل سعيدا مترنما بأغنية الحرية التايرولية ؛ فحياني بإيماءة مهذبة، وارتمى على الأريكة المقابلة لنسخة تمثال نصفي لأبولو. وبعد سؤال تافه أو اثنين، رددت عليهما عابسا، صرخ فجأة، وهو ينظر تجاه التمثال، «يناديني الناس ظافرا مثل هذا! وليست فكرة سيئة؛ فرأسه هذا سيكون على عملتي الجديدة، وفأل خير على نجاحاتي المستقبلية، وعلي كل مواطني المطيعين».

قال كلماته تلك وهو فرح أشد الفرح، وابتسم، بخلاف ابتسامته المتعالية، بشكل لعوب ساخرا من نفسه. ثم أظلم محياه، وبحدة غريبة على صوته قال معلنا، «خضت معركة عظيمة ليلة البارحة؛ كانت نصرا أعظم من أي شيء شهدته لي سهول اليونان. وها أنا ذا، الرجل الأول في البلاد، وموضوع كل أغنية، ومن تدعو العجائز له بالتوفيق. ما ظنك في؟ يا من تظن أنك تعرف دواخل الرجال، كما تعرف البحيرة كل انحاء التلال المحيطة بها، قل لي، ما ظنك بي؛ إن صرت ملكا، هل سأكون ملاكا أم شيطانا؟»

لم ترق نبرته الساخرة لقلبي الفائر؛ فأجبت بمرارة مزعوجا من تلك الإهانة؛ «بعض الأرواح ملعونة وستعلق في برزخ بين الجنة والنار، فلا تكون ملاكا ولا شيطانا». فرأيت عارضيه وقد شحبا، وارتعشت شفته البيضاء؛ وزادني غضبه غضبا، فجاوبت نظرته الحانقة بمثلها؛ وفجأة أحال نظره عني وألقاه إلى الأرض، وحسبتني رأيت دمعة تنساب من ذلك الرمش الأسود؛ فرَقَّ قلبي، وداخلني شعور لم أطلبه، وأضفت، «ولكنك لست كذلك يا سيدي العزيز».

سكت مذهولا، وبدا عليه بعض القلق. «بلى» قال أخيرا، وهو ينهض عاضا على شفته ليكتم انفعاله؛ «أنا كذلك! أنت لا تعرفني يا فيرني؛ لا أنت ولا من استمعوا إلي خطابي أمس، ولا كل إنجلترا مجتمعة، تعرف شيئا عني. فالظاهر مني أني مَلك على وشك أن يتوج؛ وأن تمسك يدي بالصولجان، ويحس كل عصب في هذا الرأس بملمس التاج القادم. أبدو ذا بأس، وقوة، وظفر؛ منتصبا كعمود يحمل قبة في أعلاه؛ والحق أنني مجرد قصبة. فقد حققت أهدافي؛ وصارت أحلام الليل وآمال النهار حقيقة؛ فالُملك ينتظر قبولي له، وأعدائي في بحر الهزيمة. ولكن هنا»، قال ضاربا على صدره بقوة، «هنا يقبع المتمرد علي، والعقبة الكبيرة؛ هذا القلب

المستبد، والذي حتى وإن يبست عروقه، سأظل عبدا له، ما دام به ولو نبضة خافتة».

كان يتكلم بصوت متهدج، ثم حنى رأسه واضعا إياه بين كفيه، وانتحب. كنت لا أزال أعاني من خيبة أملي؛ إلا أن هذا المشهد كان أشد رعبا لي، ولم أقو على مقاطعة انفعاله ذاك. ثم هدأ بعد حين؛ وألقى بنفسه على الأريكة، ليبقى هناك صامتا ساكنا، إلا من تغير ملامح وجهه التي أنبأت عن معركة حامية الوطيس في داخله. فقام أخيرا، وقال بنبرته المعتادة، «أخذنا الوقت، فيرني، يجب أن أمضي. وقبل أن أنسى هدفي من هذه الزيارة. هلا رافقتني إلى وينزر غدا؟ لن ترفض مرافقتي، أليس كذلك؟ خاصة وأن هذه، على الأرجح، آخر خدمة، أو لطمة، قد تؤديها لي».

ورفع يده على نحو خجول. وبسرعة فكرت -نعم سأحضر الفصل الأخير من هذه المسرحية. وتملكتني هيبته، وملأتُ قلبي بعاطفة طيبة تجاهه، فأسلمته قيادي. قال بسرور، «لن أزيد على هذا التلميح؛ موعدنا غدا عند السابعة؛ ولا يتبعنك أحد. وقريبا ستكون خليل الَملك».

خرج عجلا، ليثب فوق حصانه، وأومأ لي بيده وكأنه يعطيني

إياها لأقبلها، وودعني ضاحكا. فبقيت وحيدا، أحاول جاهدا معرفة سبب طلبه، والتنبؤ بما سيحمل الغد. ومرت الساعات بدون أن أشعر؛ فعصف الصداع برأسي الذي احتدمت الأفكار في كل عصب فيه، وضربت جبهتي براحتي، كأني أطلب العلاج فيها.

جئت على موعدي في صباح اليوم التالي، لأجد اللورد ريموند منتظرا إياي. فدخلنا عربته ثم اتجهنا إلى وينزر. وكابدت لألّا أبدي شيئا مما يعتلج بداخلي.

«يالخطأ رايلاند الفادح»، قال ريموند، «حين ظن أن بإمكانه أن يغلبني في تلك الليلة. كان خطابه جيدا، بل رائعا؛ خطاب كذاك كان لينجح لو ألقاه على مسامعي وحدي، إلا أن مستمعيه أولئك، كانوا من الحمقى والأوغاد. لو كنت السامع الوحيد، لطلبت المنطق وحديث العقل في خطابه، لكنه أبى إلا أن يطلبني في ميداني، وأن يقارعني بسلاحي، فكانت النتيجة كما توقع الجميع».

ابتسمت بشك، وأجبت:

«أنا مؤيد لاختيار رايلاند، ثم لم لا تسرد حججه من جديد لترى إلى أي حد ستؤثر فيك، وتغيرك من ملكي إلى وطني».

«لن يفيد التكرار في شيء»، قال ريموند، «إذ سأخلط ما أذكر من خطابه بكثير من الأفكار التي كان بودي لو أنه أضافها، مما سيجعل الخطاب مفحِما».

لم يشرح ما قصد، ولم أسأله الشرح. واستمر صمتنا لعدة أميال، إلى أن بلغنا الريف ذا الحقول الشاسعة، والغابات الظليلة، فأبهجنا المنظر. وبعد عدة تعليقات على جمال المنظر والمكان، قال ريموند: «يقول الفلاسفة أن الإنسان كون أصغر، وأن بإمكاننا أن نتأمل في دواخلنا هذا العالم الفسيح الذي نرى من حولنا. ولطالما سحرتني هذه النظرية، فأمضيت ساعات محاولا إيجاد هذا الشبه في داخلي. ألم يقل بيكون أن 'تناغم الأصوات المختلفة يصنع الموسيقى العذبة، التي تألفها المشاعر بعدما كانت تكره ضوضاء اختلافها؟' يالبحر الأهواء هذه، المتفجرة من طبيعتنا! وما فضائلنا إلا ككثبان الرمل، تغرينا بجَلَدِها وتماسكها؛ ولكن ما أن تهب ريح، أو يعلو ماء، حتى ترى البائس الذي أمل الاحتماء بها، غارقا أسفلها. أما زينة هذه الدنيا، ورغباتنا، وسعينا ومحاولة تعلمنا، فما هي إلا رياح تسوقنا كما تسوق الغيم؛ ولكن ما إن تضرب عاصفة الحب أو الكره الرعدية حتى ترانا منقلبين على كل ذلك، نصرة لتلك العاطفة».

«ومع ذلك»، علقت، «تظهر الطبيعة بمظهر الساكن، بينما يشتمل الانسان على خصائص تمكنه من إخضاع ما حوله، أو على الأقل الصمود في وجه الظروف، إلى أن يأتي شخص ليخضعها، أي الطبيعة».

«الشك يغلب على اليقين في قولك هذا»، قال صاحبي. «أنحن من يختار صفاتنا وقدراتنا؟ فأنا، مثلا، أشعر وكأنني آلة موسيقية وترية، إلا أنني أعجز عن تقليب صفحات النوتات، أو أن أعزف نغمة جواب أو قرار».

«بعض الرجال موسيقيون موهوبون» قلت.

«أنا أتحدث عن نفسي»، قال ريموند، «وضربي مثل بنفسي مساو لضربي مثلا بأي رجل آخر. أعجز عن ضبط عاطفتي تجاه أمر معين، أو أن أغير إرادتي بنفسي. فنحن نولد بدون أن نختار والدينا، أو حالنا؛ فإما أن نتعلم على أيدي أشخاص آخرين، أو تعلمنا الحياة، فيمتزج ما نتعلم مع ما بنا من خصائص، ليكون التربة التي تنمو فيها رغباتنا، وأهواؤنا، ودوافعنا».

«مع أن أغلب ما قلت حق»، قلت، «إلا أن البشر لا يسيّرون

أنفسهم وفق هذه النظرية. فمن منا يقول حين يختار أمرا، ها أنا أختار هذا مسيرا؟ ألا يحس المرء، على العكس، بحرية الإرادة حين يختار؟»

أجاب ريموند، «بالضبط، حلقة أخرى من هذه السلسلة التي لا خلاص منها. فماذا لو أقدمتُ الآن على خيار يفضي على آمالي، وينزع عباءة الُملك عن أطرافي الفانية، ليكسوها بأوراق الشجر، أتظن أن خيارا كهذا سيكون بملء إرادتي؟»

بينما كنا منشغلين بحديثنا هذا، انتبهت إلى أننا لم نسلك الطريق المعتاد إلى وينزر، بل كنا متجهين إلى مرعى بوابة الأسقف. وتنبأت بأن غاية هذه الرحلة لم تكن آيدرس، إنما لأشهد هذا اللقاء بين ريموند وبرديتا، والذي سيحدد مصيرهما. كان الارتباك جليا على ريموند طوال الرحلة، ونطقت كل حركة فيه بحيرته حالما دخلنا كوخ برديتا. وتابعته بفضول، وقد عزمت على أن أُعين برديتا على رفض حبه الهش هذا، إن استمرت حيرته؛ التي تحاول وزن التاج بأختي، وهي التي تفوق كل مَلِكٍ أرضي.

وجدناها في ركنها المحفوف بالزهور؛ وكانت تقرأ في الجريدة خبر تلك المناظرة في البرلمان، والتي قتلت بقية الأمل

فيها. وكان القنوط باديا في نظرتها الخالية من الروح؛ وظلّل الحزن حسنها، وكان اضطراب تنفسها علامة توترها. كان لصوت أنفاسها أثر بالغ على ريموند؛ فلاح الرفق في نظرته، وكسا الندم سلوكه بالصدق والإخلاص. جلس بجانبها؛ وقال وهو يسحب الجريدة من يدها، «لتتوقف جميلتي برديتا عن قراءة جدال هؤلاء المجانين والحمقى. إذ أخشى أن تعرفي مدى ضلالي فتكرهينني؛ على أن إلهامي في حربي الكلامية تلك، كان رغبتي بأن أظهر أمامك بمظهر الظافر، لا المنهزم».

نظرت برديتا إليه مذهولة؛ وأشرق محياها للحظة بالرقة؛ لسعادتها برؤيته.

و لكن سرعان ما انقشع الفرح عنها؛ وحولت نظرها إلى الأرض مجاهدة كتم أدمعها، التي كادت أن تغمرها.

تابع ريموند، «لن أحاول أن أبدو خلافا لما أنا عليه، ضعيفا وغير كفؤ لحبك، وأهل فقط لاحتقارك. بيد أنك تحبينني؛ أعرف ذلك وأشعر به، لذا أتخلى عن أغلى طموحاتي. فإن كانت الكبرياء دافعك، أو العقل حَكَمك، فقد ترفضيني. ارفضيني إن لم يشأ قلبك أن يدنو من سفالتي ليرفعني. صديني، إن شئت -أو استطعت- إن

لم تحثك روحك لمسامحتي، إن لم يفتح قلبك بابه لأسكن في وسطه، انبذيني ولا تكلميني أبدا. ومع ما ارتكبت من إثم شنيع في حقك، إلا أنني امرؤ أبيّ؛ فأرجو ألا تتراجعي عن صفحك، إن صفحت، وأن تنقصي حبك لي، إن قبلتيني».

وجهت برديتا بصرها إلى الأرض، وخالط حيرتها السرور. وأخجلها حضوري؛ فعجزت عن رفع عينها لتلاقي عين محبوبها، أو أن تنطق بقبولها له؛ إلا أن الحمرة غطت خديها، وتبدل غمها إلى فرح شديد. وطوق ريموند خصرها بذراعه متابعا، «لا أنكر أني كنت مترددا بينك وبين أقصى آمال الرجال الفانين؛ إلا أنني لست في حيرة بعد الآن. خذي قلبي وروحي خذيني كلي. وإن أعرضت عني، وعن إسعادي، فسأغادر إنجلترا الليلة، ولن تطأها قدمي أبدا مرة أخرى.

ليونيل، أرجوك اشهد لي عند أختك وأقنعها بأن تغفر خطئي في حقها، وأن تقبل حبي».

«لا داع للإقناع»، قالت برديتا الخجلة، «فلست أريد منك إلا وعدك، والذي يهمس لي قلبي بأنه وعد صادق».

مشينا في أرجاء الغابة تلك الليلة، ومع كثرة الكلام الناتج عن السعادة، ذكرا لي بالتفصيل تاريخ العلاقة بينهما. استمتعت برؤية تغير غطرسة ريموند وانطواء برديتا إلى ثرثرة ولعب طفوليين، وأن أرى كليهما متخليا عن وقاره رغبة بالاستمتاع بتلك اللحظات المشتركة. فقبل ليلتين، كان ريموند صابا كل تركيز قلبه وعقله، على إقناع مشرعي إنجلترا بأنه قادر على حمل صولجان المُلك، وإخراس الرافضين لذلك؛ بينما امتلأ خياله بالسيادة، والحرب، والنصر. أما الآن فتراه مرحا كطفل يلعب تحت ناظر والدته؛ واكتملت سعادته حين قرب يد برديتا الضئيلة والجميلة من شفتيه وقبّلها؛ بينما نظرت وهي تشع بهجة إلى خيالهم في الحوض، وسكرت، لا من جمال صورتها، بل من نشوة اجتماع المحبين.

مشيت مبتعدا عنهم. إن كان الحب الأكيد سبب فرحهم، ففرحي سببه عودة الأمل إلي. نظرت إلى أبراج وينز الملكية. ما أعلى وأمنع أسواره التي تحجب نجمتي الجميلة! إلا أن تخطيها ليس بالمستحيل. فلن تكون من نصيب ريموند. «تمسكي بأرض حديقتك لبضع سنين فقط، يا وردتي العطرة، حتى أصير أهلا لقطفك. ولا تيأسي، أو تيئسيني!» ماذا يجب علي أن أفعل؟ أولا يجب أن أخلص أدريان وأعيده لها. صبرا، فالمحبة والود سيعيدان

عقله إليه، إن كان ما قال ريموند حق؛ فالشجاعة والبأس ستنقذانه، إن كان مسجونا فعلا.

تعشينا سوية بعد أن عاد المحبون إلى الكوخ. وكان عشاء حالما، فعلى حلاوة الهواء وتشبعه برائحة الفواكه والنبيذ، لم يأكل أحد منا أي شيء. بل لم يلاحظ أحدنا جمال تلك الليلة؛ فقد كانا غارقين في نشوتهما، وكنت مستغرقا في أحلام يقظتي. وعند منتصف الليل، تركنا أنا وريموند أختي، وعدنا إلى المدينة. كان مفعما بالسرور، فانسابت الأغاني على شفتيه؛ وأشرقت أفكاره وكل شيء حوله بنور حبوره. واتهمني بالكآبة، والحسد.

«لا، لست كذلك»، قلت، «مع اعترافي بأن أفكاري ليست مفعمة بالبهجة مثل أفكارك. وعدتني بأن تسهل زيارتي لأدريان؛ لذلك أناشدك البر بوعدك. فلا أستطيع البقاء هنا؛ أتوق لمساعدته، وأرجو شفاء أول وأعز صديق لي. سأذهب الآن إلى دنكيلد».

«يالك من بومة» أجاب ريموند، «شوهت فرحي بتذكيري بذلك المنظر الكئيب، لذلك القابع في خرابة عقله، والذي لا شفاء له. أتحلم بشفاء عقله؟ عقله في متاهة كتلك التي بناها ديدالوس. ولم يبْنِ ديدالوس متاهة يسهل النجاة منها، وإلَّا لم ظل المينوتور

فيها إلى أن عشش الجنون في عقله؟. ولن تستطيع، ولا أي ثيزوس آخر، أن تخرجوه من تلك المتاهة، إلا بمساعدة أريادني الفظة».

«تقصد ايفادني زيمي، ليست في إنجلترا».

«و إن كانت هنا»، قال ريموند، «لا أنصحك أن تراه. أكرم للمرء أن يأكله الجنون على أن يعيش حبا مضطربا. وعلى الأرجح، محا طول جنونه كل ذاكرة له؛ ومن الأفضل أن لا تعود لذاكرته أبدا. ستجده في دنكيلد؛ رقيقا وديعا في طلعاته على التلال، وتجواله في الغابة، أو سكونه منصتا إلى الشلال. ستراه إن شئت والورود البرية تملأ شعره ، وعينيه فارغتين من المعنى، كسير الصوت، لم يبق من شخصيته إلا شبحه. ستراه يقطف الورد والعشب، لينسج أكاليل منها؛ أو مرسلا أوراق الشجر الصفراء أو قطع اللحاء في الجدول؛ فيطرب إن وصلت بسلام، وينوح إن غمرها الماء. مجرد تذكر ذلك يتعبني. أقسم أن أول دمعة ذرفتها منذ طفولتين، جرت ساخنة على خدي حين رأيته على تلك الحال».

لم يزدني هذا الكلام إلا استعجالا لرؤيته. وكانت حيرتي الوحيدة بين وجوب رؤية آيدرس، قبل أن أشد رحالي، وعدمها. وحسمت هذه الحيرة في اليوم التالي. فقد أبلغني ريموند في

الصباح الباكر أن أخبارا وصلته عن تدهور صحة أدريان بشكل خطير، وأن صحته لن تعينه على التعافي من جنونه.

قال ريموند، «غدا، ستسافر أمه وأخته إلى اسكتلندا لرؤيته».

«و سأتحرك أنا اليوم»، صحت؛ «سأتخذ منطادا؛ سأكون هناك خلال ثمانية وأربعين ساعة على أقصى تقدير، إن كانت الرياح مواتية. وداعا ريموند، أرجو لك السعادة فيما اخترت. ما جد من تغيرات أحياني. ولست أخشى عليه من المرض، ولكن من الجنون. ينبئني هاجسي أن أدريان لن يموت؛ وأن هذا المرض ليس إلا أزمة سيتخطاها».

تواطأ كل شيء لتسهيل رحلتي. فارتفع المنطاد إلى مسافة نصف ميل، ودفعته الرياح الطيبة، لتشق أجنحته عباب السماء إلى وجهتنا سريعا. ومع من كآبة وجهتي، إلا أن روحي كانت منتعشة بعودة الأمل إليها، وسرعة تحليق ذلك الفُلك الهوائي، ولفح الهواء الكثيف. بالكاد حرك الطيار الدفة، وأسكن صوت رفرفة الأجنحة المبسوطة أحاسيسنا. مرت من تحتنا التلال والسهول، والجداول والحقول، محلقين بلا عائق أو مانع، تحليق البجع في هجرة الربيع. ومع انقياد المنطاد طيعا لأدنى حركة للدفة، وهبوب

الرياح باعتدال، مضت رحلتنا بدون أي عقبة. وهكذا هي سطوة الإنسان على الطبيعة؛ سطوة لطالما رجاها، فظفر بها مؤخرا؛ سطوة تنبأ بها منذ القدم، إذ قال أمير الشعراء ، الذي أدهشت أبياته الطيار حين علم أنها قيلت قبل مئات السنين:

أعقل الإنسان، في الشر ما أبدعك

تطرق غرائب الأمور، فمن ذا يظن

أن رجلا يحلق في السماء

كالطائر يطير في الأرجاء

نزلت في بيرث ، وعلى الإجهاد الذي نالني من التعرض للهواء لساعات طوال، لم أرغب بالراحة، إنما غيرت راحلتي فقط، من دابة سماوية إلى أرضية، ومضيت إلى دنكيلد. كانت الشمس في شروقها حين وصلت إلى التلال. وها هي تلال بيرنام ، تكسوها غابة فتية، لم تكن كذلك يوما. بينما أضفت أشجار الصنوبر القديمة التي زُرعت عند مطلع القرن التاسع عشر، بأمر دوق آثول في ذلك الحين، وقارا وجمالا على المنظر. لامس ضوء

الشمس أولا قمم أشجار الصنوبر، وعادت بي الذاكرة إلى أيامي في الجبال، متأثرة بجمال الطبيعة، وخطر لقلبي أن في هذا المنظر الساحر وتوقيته الذي يوافق صبح لقائي بصديقي الحبيب، والذي قد يكون محتضرا، فألا حسنا لأدريان، ولسعادتي التي تعتمد على حياته.

يا للرفيق المسكين! مستلق على سرير المرض، وقد احمر خداه من الحمى، تكاد أجفانه تغمض، وأنفاسه متقطعة. بيد أن رؤيته هكذا أهون علي من أن أراه يتحرك في سلوك حيواني مجنون. فلازمت جانبه ليلا ونهارا، ولم أتركه أبدا. وشق علي أن أرى روحه ترف بين الحياة والموت، وحمرة خديه تشير بأنها حمرة المرض لا حمرة الصحة؛ وأسمع أنين صوته، الذي قد لا يعود إلى نظم أحاديث الحب والحكمة؛ وحركة أطرافه الثقيلة، التي قد يلفها الكفن قريبا. وبعد ثلاثة أيام من المداراة والاهتمام، ألقاها القدر على عاتقي، فبدوت هزيلا كشبح من شدة القلق والترقب، فتح عينيه المثقلتين أخيرا، ولكن، ورغم انحسار حدة المرض، شحب لونه وضعفت حركته أكثر، إلا أن ملامحة لانت مع تحسن صحته. وعرفني! أي شعور طافح بالألم والفرح اجتاحني، حين أشرق وجهه بعلامات معرفتي! حين ضغط يدي، التي صارت أدفأ

من يده، وحين نطق باسمي! لم يبق أثر من جنونه، الذي خفت أن يقتل بهجتي.

وفي ذلك المساء وصلت أمه وأخته. كانت كونتس وينزر بطبيعتها ملتهبة المشاعر؛ إلا أنها نادرا ما سمحت لمشاعرها بالظهور على وجهها. وما جمود ملامحها؛ وتأني حركتها ورزانتها، وخفوت صوتها، غير الشجي، إلا قناع تتستر خلفه مشاعرها. ولم تشبه أيا من أبنائها؛ فعيناها السوداوان اللامعتان ببريق الكِبر، كانتا مختلفتين كل الاختلاف عن زرقة وسماحة ورحمة عيني أدريان وآيدرس. كان حضورها مهيبا وعظيما، وخاليا -في نفس الوقت- من القبول والأنس. كان وجهها النحيل جميلا، ولست ترى في شعرها الفاحم البياض إلا إذا أمعنت النظر؛ ذات جبين فاتن لولا بعض كثافة في حاجبيها -يستحيل ألا تذهل لرؤيتها، أو ألا تخافها. ولم يكن من أحد سوى آيدرس قادر على الصمود أمامها، على الرغم من رقتها البالغة. إذ كان فيها من الشجاعة والطيبة، ما يمنعها من أن تتعدى على حرية غيرها، ويمنع غيرها من أن يتعدى على حريتها.

لم تبد الكونتس أي لطف تجاه هيئتي المنهكة، مع شكرها لي ببرود في وقت لاحق. أما آيدرس فلم تكن كذلك؛ فبعد أن انكبت

على أخيها مقبلة يده وعينيه، مُقَلِّبة ناظرها المشفق والمحب فيه لبعض الوقت. امتلأت عيناها بالدموع وهي تشكرني، ولم يفقدها حماسها ومسحة التلعثم، شيئا من جمالها، بل زادها ألقا. وسرعان ما قاطعتنا أمها المتيقظة؛ ورأيت فيها رغبة بصرفي بهدوء، بعد أن انتفت الحاجة لي بوصول أهله. صممت، على ما بي من إرهاق ومرض، ألا أترك مكاني. غير أنني لم أعرف أي سبيل أتخذ لذلك؛ إلى أن ناداني أدريان، وطلب إلي، وهو ضام يديَّ، ألا أفارقه. ففهمت والدته الإشارة، وتركت المكان لنا.

كانت الأيام التي تلت مليئة بالألم لي؛ حتى كنت أتمنى أحيانا لو أنني انصرفت كما أرادت تلك المرأة المتعجرفة، التي تسلطت عليّ مراقبة كل حركاتي وسكناتي، فأحالت عنايتي بصديقي الحبيب إلى عمل مستفز ومزعج. لم أر في حياتي امرأة مثلها. فقد تحكم طموحها بشهواتها وحاجات جسدها؛ فكانت بالكاد تأكل الطعام، ولا تنام إلا يسيرا من الوقت؛ كما أنها نظرت إلى جسدها كآلة، فالغاية من صحتها هو إعانتها على إتمام خططها. هناك جانب مرعب في أولئك القادرين على قهر غرائزهم الحيوانية، لتحقيق غاية غير نبيلة. بمشاعر الرعب هذه، رأيت استيقاظها والناس نيام، وصيامها، بينما أكلت أنا فوق عادتي، لأعين نفسي

على المرض. عزمت على رفع أو تخفيف تأثيري على أبنائها، فأحاطت بكل تحركاتي، بعزم ثابت عنيد، وشديد، لا أخال مثله في البشر. وأخيرا أعلنتْ الحرب بيننا -ضمنيا- فخضنا العديد من المعارك التي لم نتبادل فيها كلمة، وبالكاد نظر أحدنا فيها تجاه الآخر، إلا أن كلينا كان عازما ألا يستسلم. وكان تفوقها علي بالمنصب والمكانة، لذا هزمت، ومع ذلك لم أستسلم.

زاد مرضي، واصطبغ محياي بلون المرض. ورأى أدريان وآيدرس ذلك؛ ولعلمهم أن ذلك نتيجة لطول سهري وعنايتي بأدريان، طلبوا إلي أن أرتاح وأعتني بنفسي؛ فكان ردي أن أفضل علاج لي هو دعاؤهما، وأيضا ما أرى من تحسن يومي في صحة أدريان. فعاد التورد إلى خديه من جديد، وزال شحوب الموت عن جبينه وشفتيه؛ فكانت المكافاة الأغلى لقيامي المتواصل عليه، وزادتني السماء بكرمها ابتسامة آيدرس الشاكرة.

بعد انطواء بضعة أسابيع، رحلنا عن دنكيلد. فعادت آيدرس وأمها مباشرة إلى وينزر، بينما تبعتهما وأدريان بسير بطيء كثير التوقف، مراعاة لصحته. وأثناء مرورنا بالعديد من المقاطعات في أرض إنجلترا الغناء، كانت البهجة ملازمة لرفيقي لشدة جمال ما يرى من مناظر منعه المرض منها حين كان ملازما للفراش. فمررنا

ببلدات مكتظة بالناس، وسهول تُفلح. وكان منظر الرجال وهم عائدون بحصادهم الوفير، إلى أزواجهم وذراريهم، المشغولين بخفيف الأعمال، شارحا للصدر. وفي أصيل أحد المساءات، خرجنا من نزلنا، ومشينا في طريق ظليل، ثم منحدر عشبي، إلى أن وصلنا إلى ربوة تشرف على التلال والوديان والأنهار والغابات والقرى. وأمام الشمس الغاربة، تناثرت الغيوم كقطيع من الغنم، في مراعي السماء الفسيحة، تتخللها أشعة الشمس الوديعة؛ وأضاءت الأراضي البعيدة بأنوار ساكنيها، وانتشرت ضوضاء المساء، التي بلغتنا بلطف من البعيد. شبك أدريان، الذي شعر وكأن الروح نفخت فيه من جديد، يديه وهتف بنشوة:

«يا أيتها الأرض الضاحكة، ويا ساكنيها السعداء! ما أفخم منزلك الذي قدره الإله لك أيها الإنسان! وما أجدرك به! انظر إلى البساط الأخضر أسفل أقدامنا، وإلى القبة الزرقاء أعلانا؛ وحقول الأرض التي تنبت وتطعم كل شيء، وإلى السماء الحاوية لكل موجود. في هذه الساعة من هذا المساء، في فترة السكون وإدفاء البطون، أؤمن أن كل القلوب تنبض بالحب والحمد؛ ونحن -من أعلى هذه الربوة- ككهنة من الزمن الغابر، نصرخ بما يعتمل فينا.

ولا ريب أن إرادة رحيمة بنت هذا النسيج البهي الذي نعيش

فيه، ووضعت قوانينه التي يحيا بها. فلو كان الوجود المجرد، لا السعادة، الغاية من خلقنا، فما الداعي لكل هذه المتع الوافرة؟ لمَ نسكن في مساكن تشرح صدورنا؟ ولمَ تعودنا على الإحساس باللذة؟ خُلقنا سعداء، وكذلك طعامنا، فالثمار التي نأكل ذات ألوان زاهية، ورائحة عطرة، وطعم لذيذ. فإن كان الإله شريرا، لم أحاطنا بكل هذا؟ أولسنا نحتاج المنازل لتقينا الحر والقر؟ انظر حولك لما يحيط بنا من مواد لذلك؛ فالأشجار المزينة بأوراقها لا تنفك تنمو؛ والصخور متناثرة في السهول تنتظر من يستخدمها.

و ليست الأشياء حولنا الدليل الوحيد على خيرية الإله. فتأمل في عقل الإنسان، والحكمة التي يعقل بها؛ وخياله الذي يلهم الرسام مناظر أبدع من هذا الغروب الساحر. نعم هبة خيال، ونعم الواهب واهبها! إذ ينفي الكآبة عن الواقع، ويلبس كل شيء ثوبا بهيا، وينتشلنا من بحر الحياة المظلم، إلى حدائق وبساتين السعادة والسرور. وكذلك الحب، أليس نعمة إلهية؟ الحب، وطفله الأمل، اللذان يقدران أن يسبغا الثراء على الفقير، والقوة على الضعيف، والسعادة على الحزين.

لم تكن السعادة نصيبي. فقد ألفت الحزن طويلا، ودخلت متاهة الجنون الكئيبة، وبالكاد نجوت. ومع ذلك أشكر الله. أشكره

لأني رأيت السماء، عرشه، والأرض، كرسي قدمه. ومسرور لأنني شهدت تعاقب هذا اليوم؛ فرأيت الشمس، نافورة النور، والقمر الرقيق؛ والورود الملتهبة في السماء، ونجوم الأرض المزهرة؛ ولأني شهدت الغرس والحصاد. مسرور لأنني أحببت، وجربت الفرح والحزن مع ما حولي من كائنات، مسرورا بما أشعر من سريان الأفكار في ذهني، سريان الدم في العروق؛ فالوجود بحد ذاته لذة، وأحمد الله أنني حي!

و أنتم يا أبناء أمنا الأرض، ألا تقولون قولي؟ يا من ربطتكم الطبيعة بوشائج القرابة، والصداقة، والمحبة! أباء، تحرثون الأرض جذلين لأجل ذرياتكم؛ وأمهات، ينسيكن منظر الأبناء وهم يلعبون آلام الأمومة وتعبها؛ وأطفالا، لا تتعبون ولا تشقون، إنما تحَبون وتحِبون.

آه، لو أن المرض والموت فارقا أرضنا! ولو طرد الاستبداد والخوف من قلب الانسان! ولو وجد كل إنسان أخا في رفيقه الإنسان، ومسكنا هانئا على هذه الأرض! ولو جفت أسباب الدمع، واختفت تعابير الحزن من على الشفاه. أي شر سيقدر عليك لو نمت هكذا تحت عين السماء الحارسة، وأي حزن سيعشش في قبور أبنائك التعيسين؟ أعلنوها صاخبة، ولترقص الشياطين طربا.

فالأمر بيدنا؛ لنعقد العزم، ونحيل أرضنا إلى جنة. فلا حد لإرادة الإنسان، إن أراد، أن يثلم نصال الموت، أو يشفي المرض، أو يمسح دمعة المتألم. وما قيمة الإنسان، إن لم يسخّر طاقته لعون أقرانه من الكائنات؟ ما روحي إلا شرارة خافتة، وجسدي أضعف من نسمة؛ إلا أنني سأسخّر عقلي وقوتي، قدر استطاعتي، لمهمة واحدة أخذتها على عاتقي، ألا وهي خير البشرية».

و لفرط الانفعال، ارتعش جسده الهزيل وانحنى وهو ضام يديه، بينما نظرت عيناه إلى السماء. وعلقت روح الحياة بجسده، علق اللهب الخافت بالأضحية على المذبح.

الفصل الخامس

علمت، حين وصلنا إلى وُينزر، أن ريموند وبرديتا قد سافرا إلى أوروبا. فاتخذت كوخ برديتا مسكنا لي، ونعمت بكون قلعة وينزر على مرمى النظر مني. ومن الطريف أنني في ذلك الحين، أي حين تزوج ريموند برديتا، كنت صهرا لأحد أغنى رجال إنجلترا، وصديقا مقربا لأنبل رجالها، ومع ذلك، كنت في أشد حالاتي فقرا. وكان مانعي أن أقترض من ريموند، مهما كان ضيقي، هو ما عرفت عنه من حب للمادة. وعلى كثرة ما كنت أقول لنفسي أن جيبي وجيب أدريان واحد؛ فكما تجمعنا روح واحدة، كذلك ثروتنا واحدة. إلا أنني لم أجرؤ، طوال صحبته، أن أنظر إلى ثروته كعلاج لفقري؛ حتى أنني كنت أرفض ما يعرض علي من مال بسرعة، وأقول كاذبا بأني لست بحاجته. فكيف لي أن أطلب من هذا الكريم قائلا، «أعلني في بطالتي. يا من بذلت طاقتك وثروتك في خير أبناء جنسك، هلا أهدرت بعضا من ذاك، في إعالة العاطل، القادر على العمل؟»

لم أجرؤ حتى على أن أطلب إليه أن يقطعني قطعة أرض أو عقارا يدر علي دخلا كريما، مخافة أن يلزمني ذلك ترك وينزر.

وأمضيت جل وقتي حافا أسوار القلعة، أو مستظلا بأجماتها؛ برفقة كتبي وحبي فقط. فكنت أدرس حكمة الأوائل تارة، وأنظر للأسوار التي تحجب حبيبتي تارة أخرى. إلا أن عقلي كان متكاسلا، على ما قضيت من دراسة الشعر القديم؛ وما ورائيات أفلاطون وبيركلي . ودراسة لتاريخ اليونان والروم، وعصور إنجلترا السابقة. فقد كنت مراقبا لمحبوبتي. ففي الليل كنت أرى ظلها على جدران غرفتها؛ وفي النهار كنت أراها إما في حديقة الزهور، أو راكبة مع صاحباتها في الحديقة. وسعيت ألا تراني، حتى لا تكسر لذة المراقبة، مع ما كان يغريني من سماع ضحكتها الساحرة. رسمت جمالها وصفاتها التي لا مثيل لها على كل بطلة كنت أقرأ عنها؛ فمرة على أنتيجون وهي تقود أوديب إلى آلهة الغضب، وحين أقامت جنازة بولينيس ؛ ومرة على ميرندا وهي في كهف بروسبيرو ؛ ومرة هايدي على شواطئ أيونيا. قادني حبها إلى الجنون، إلا أن كبريائي كان مانعي من إبداء أي نظرة أو كلمة تشي بذلك.

بينما كنت أسبغ على عقلي وجبات فكرية دسمة، كان زاد جسدي أزهد زاد لأفقر فلاح. وأعترف أن نفسي أغرتني أكثر من مرة بأن أعود إلى توحش صباي، وأصرع أحد طيور التَّدْرُج الأليفة، الآمنة فوق الأشجار. وكنت دائما ما أتخيلها مقطعة وجاهزة للشي

في مطبخي، ومفضلا ذلك لها، على عيشها بين أوراق الغابة الخضراء؛ إلا أنها كانت ملك أدريان، وتحت رعاية آيدرس. مع ذلك، كبحت شهوتي، ولم آكل أيا منها؛ واقتت على عاطفة الحب، وحلمت في نومي بلذيذ الأكل الذي عزّ علي في صحوي.

كان حالي في تلك الفترة على وشك التبدل. فكان ابن فيرني اليتيم موشكا على أن يرتبط بعلية القوم بسلسلة من ذهب، وأن يباشر حياة جديدة. فطاوعت المعجزات وعجلة الحياة صالحي وتحركت بما يخدمني. أعرني انتباهك أيها القارئ، بينما أسرد عليك هذه القصة العجيبة.

كان أدريان وآيدرس يركبان الخيل في أحد الأيام، مع والدتهما وصحبتهما المعتادة، في أرجاء الغابة. فانتحت آيدرس بأخيها جانبا، وسألته «ما الذي حل برفيقنا، ليونيل فيرني؟»

«تستطيعين رؤية سكنه من هذه النقطة» أجاب أدريان وهو يشير إلى كوخ اختي.

«صحيح»، قالت آيدرس، «ولكن ما الذي يمنعه من زيارتنا ما دام قريبا؟»

«كثيرا ما أزوره»، أجاب أدريان، «أما مانعه من الزيارة، فلا يخفى عليك أن ذلك قد يزعج أحد ساكني القلعة».

«لا يخفى عليّ ذلك»، قالت آيدرس، «لذا لن أقامر بإثارة الأمر. ولكن أخبرني، كيف يقضي وقته، ما الذي يشغل جسده وفكره في ذلك الكوخ؟»

«سألت ما يفوق معرفتي يا أختي العزيزة»، أجاب أدريان، «و لكن إن كان الأمر يهمك، فلم لا تزورينه؟ سيسعده ذلك، وعلك ترُدين له بعض الجميل الذي ندين به إليه، وتعوضينهُ شيئا من ظلم القدر له».

«سأرافقك بكل سرور إلى مسكنه»، قالت آيدرس، «مع أني لا أحسبنا قادرين على رد الجميل له، فلا شيء يعدل حياتك. ولكن، لنذهب غدا، سنرتب للركوب سوية وحال خروجنا سنتجه نحو مكانه في الغابة، لزيارته».

في اليوم التالي، وعلى المطر والبرد المصاحبين للانقلاب الخريفي، وفد أدريان وآيدرس على كوخي. فوجداني في حال بائس أتناول عشاء من الفواكه المجففة؛ إلا أنهما جاء محملين

بهدايا أثمن من عرائس السابيين ، فلم أستطع ردها، ولا رد صحبتهم التي أبهجتني. ولم أكن لأسعد بتوأم ليتو ، اللذين ولدا لينيرا ويجمّلا هذا العالم، أكثر مما سعدت بهذا التوأم الملائكي الذي حل في مسكني الوضيع هذا. فتحلقنا كالعائلة حول المدفأة. وتحدثنا عن أمور كثيرة، غير متصلة بما يفيض فينا من مشاعر؛ إلا أن كل منا كان عالما بما يدور في خلد الآخر، فبينما كانت ألسننا تتحدث عن أمور متنوعة، كانت أعيننا تنطق بآلاف الأشياء التي يعجز أي لسان عن نطقها.

انتهت الزيارة بعد مرور ساعة من الوقت. وتركاني سعيدا، إلى حد لا يوصف. فلا تسع مفردات أي لغة أن تحكي نشوتي. فقد زارتني آيدرس، وسأراها مرارا وتكرارا! وصار هذا الأمر الشاغل الوحيد لفكري. وطرت بفرح لا يشوبه شك ولا خوف؛ وضمت جوانحي كل الرضا والهناء.

وهكذا، توالت زيارات أدريان وآيدرس لأيام عديدة. وفي تلك اللحظات الحميمة، كبر الحب المُتقنِّع بالصداقة، وظهرت منه فلتات تعلن عن وجوده. وأحست آيدرس بذلك. آيدرس التي أرى قداسة العالم فيها؛ وسحر نغمه في صوتها. يا رب هيأت لنا طريقا مفروشا بالورود ومحفوفا بالعشق. ويا حب، لم

يذكر اسمك، إلا أن وجودك محسوس كما يحس المرء بملاكه الحارس، إلا أنه يعجز عن كشف الحجاب عنه. ولم تنطق شفاهنا بما يعتمل في داخلنا، خوفا مما سيجر ذلك علينا.

آه يا قلمي! عجل في كتابة ما كان، قبل أن يشغل ما هو كائن اليد التي تحركك. فلن أقوى على الكتابة لو رفعت ناظري إلى هذه الأرض المقفرة، واستشعرت أن بريق عينيها قد انطفأ، وأن شفتيها الزهرتين الجميلتين قد أخرستا إلى الأبد.

ولكنك حية باقية، يا آيدريسي، وأراك ماثلة أمامي! ويا من تقرأ، كانت هناك فرجة في الغابة؛ أفسحتها الأشجار كمعبد للحب؛ يحدها نهر التايمز الفضي من جهة، وفيه غمست أشجار الصفصاف أغصانها التي أشعثتها يد الهواء الخفية. وعشش سرب من البلابل في أشجار الصنوبر المحيطة بها، هناك جلست وبجانبي آيدرس في أزهى شبابها، فقد كنت حينها في الثانية والعشرين، بينما بلغت حب قلبي السابعة عشر توا. ومع فيضان النهر إثر أمطار الخريف، ركب أدريان قاربه المفضل، وشغل وقته بنشاط خطير، وهو نتف أقصى الأغصان، لإحدى أشجار الصنوبر التي غمرها الماء. أَسَئِمْتَ من الحياة يا أدريان، حتى تلاعب الخطر؟ نال جائزته التي أراد، ثم حاول توجيه قاربه نحونا، وتابعته أعيننا بخوف، إلا أن

الفيضان جره بعيدا عنا إلى أسفل النهر؛ فاضطر إلى قطع مسافة كبيرة حتى وصل إلينا. «إنه بخير»، قالت آيدرس، حين قفز من قاربه إلى الضفة، ولوح لنا بالغصن كدليل انتصار، «سننتظره هنا».

كنا وحيدين، وقد غابت الشمس، وبدأت البلابل بالتغريد؛ ولمعت الزُهَرَة على صفحة الماء. قالت وعيناها الزرقاوان تنظران إلى انعكاس الكوكب، شبيهها اللامع: «ارتعاش ضوئه يحكي عن حياته. سطوعه المتذبذب، يقول أنه مثلنا على الأرض، يحب ويخاف».

«لا تحدقي بالنجم، يا عزيزتي الجميلة»، قلت، «و لا تستقرئي الحب في ألوانه المضطربة؛ لا تنظري إلى عوالم أخرى؛ ولا تتحدثي عن عاطفة الأشياء الخيالية. طال بي الصمت حتى أعياني؛ ولكم تقت إلى البوح لك، ولأن أقدم روحي وقلبي، وكل ما في لك. لا تنظري إلى النجم، أو انظري، وليكن نوره شاهدي؛ فحبي كبريقه، خالد ولن يفنى ما بقي لمعان هذا النجم».

جدير بتلك اللحظة أن تحجب أبدا عن عيون العالم القاسية. فلا يزال قلبي يخفق كلما ذكرت دنوها مني وقبلتنا الأولى. قبل أن نمضي بصمت وهدوء للقاء أدريان، الذي سمعنا اقترابه.

رجوت أدريان أن يعود إليَّ بعد أن يوصل أخته إلى القلعة. وأثناء تجوالنا في الغابة، تحت ضوء القمر، سكبت كل ما في قلبي نشوة وأمل أمام صاحبي. بدا منزعجا لبرهة، وقال، «توقعت ذلك. أي صراع سينشب الآن! أرجو أن تعذرني يا ليونيل، وأن لا تستغرب نفوري من فكرة الصراع مع والدتي، في وقت يجب أن أفرح به لأني آمنت أن أختي ستكون تحت جناحك. فإن كنت تجهل شدة كره والدتي لاسم فيرني، فستعلم ذلك قريبا. سأحاور اختي في الأمر، وسأبذل كل ما في وسعي؛ وعلى أختي تحمل دورها».

وبينما كان الأخ وأخته في حيرة من أمرهما، في كيفية إقناع والدتهما بالموافقة، فاجأَتْهم بشكها بالأمر، لكثرة زياراتهما لي. واتهمت ابنتها بالخداع، ونية الارتباط برجل لا قيمة له، سوى أنه ابن صاحب والدها. اشتعلت عيني آيدرس بالغضب وردت: «لا أنكر أني أحب فيرني؛ أثبتي لي أنه حقير وعديم الجدوى، ولن أراه مجددا».

قال أدريان، «سيدتي، أرجو أن تصادقيه. حينها ستتعجبين، كما أعجب، من حسن خصاله، وبراعة مواهبه».

(المعذرة أيها القارئ العزيز، فلست من المولعين بمدح أنفسهم، لكن مما يدخل السعادة إلى قلبي الوحيد، ذكر ما أعلم

من حسن ظن أدريان بي)

«يا لك من فتى أحمق ومجنون»، صاحت الكونتس الغاضبة، «اخترتَ أحلامك رغم ما خططتُ لك من مستقبل عظيم؛ ولكن لن أسمح لك بأن تفعل مثل ذلك لأختك. أعرفُ هذا الإعجاب به، أعرفه جيدا؛ فقد سمعته مرارا من والدكما، حينما جاهدت أن أقنعه ليقطع علاقته بوالد هذا الشاب، الذي ألبس شره اللباقة واللين، كالأفعى. لطالما سمعت، في تلك الأيام، عن ظرافته، وحسن أخلاقه، وظفره بقلوب الناس. ولا يهمني لو انخدع الرعاع به وبألاعيبه؛ ولكن لم أكن لأقبل أن أرى ذوي النسب العالي، يحنون رؤوسهم لذلك المدعي المخادع. ولو كانت أختك شخصا عاديا لتركتها لمصيرها البائس الذي اختارت، بأن تكون زوجة للرجل الذي ورث كل نقيصة عن والده التعس؛ ولكن، تذكري أن الليدي آيدرس، لا تحمل فقط دماء ملوك إنجلترا السابقين، بل هي أميرة نمساوية أيضا، وكل نفس فيها يتصل بملوك وأباطرة. أتظنين أن راعي الغنم ذاك، والذي إرثه الوحيد، اسم والده المدنس بالعار، أهل للزواج بك؟»

«ردي الوحيد ما قاله أدريان»، أجابت آيدرس، «اجلسي مع راعي غنمي» -قاطعتها الكونتس صارخة بغضب- «راعيك!»، ثم غيرت ملامحها المنفعلة إلى ابتسامة محتقرة، وأكملت، «سنتحدث عن هذا في وقت لاحق. جل ما أطلبه منك، آيدرس،

هو أن لا تري محدث النعمة هذا لمدة شهر فقط».

«لا أستطيع ذلك»، ردت آيدرس، «سيؤذيه ذلك كثيرا. ولا يحق لي أن أقبل وصله، ثم أُجازيه الغياب.»

«لقد تجاوز الأمر». قالت الكونتس، بشفتين مرتعشتين، والشرر يقدح من عينيها مجددا.

«لا يا سيدتي»، قال أدريان، «إذا لم تقرر أختي عدم رؤيته أبدا، فلا داعي لإخضاعهم لعذاب هذا الشهر».

قالت الكونتس بسخط ومرارة، «بكل تأكيد، يجوز لحبهما وعبثهما الطفولي، أن يقارن بما قضيت من سنين بين أمل وقلق، ورعاية لذرية الملوك، راجية أن يحمل أحدهم عني هم ذلك السعي. ولكن، من العبث أن أشتكي وأجادل الآن. إلا أنني أرجو أن تعديني أن لا تتزوجيه هذا الشهر، هل تعدينني بذلك؟»

سألت هذا السؤال بنبرة شبه ساخرة؛ واستغربت آيدرس، أن تطلب منها والدتها وعدا بأن لا تنفذ ما لم يخطر ببالها أصلا. إلا أنها أصرت على الوعد، فأقسمت لها آيدرس.

ومرت الأيام سعيدة؛ فكنا نتقابل كما اعتدنا، وتحدثنا بلا خوف من المستقبل. وكانت الكونتس أرق ما يكون، أكثر من العادة، وزاد أنسها مع أبنائها، حتى ظنوا أنها لانت لهم، وأوشكت أن توافق على رغبتهم. ومع اختلافها أشد الاختلاف عنهم، إلا أنهم سعدوا لرؤيتها بذلك اللطف والرضا. بل حتى غامر أدريان مرة وعرض عليها دعوتي للتعرف علي. فرفضت مبتسمة، وذكرته بأن أخته وعدت بأنها لن تتعجل أمر الزواج.

وفي أحد الأيام، بعد مرور ما يقارب الشهر، جاءت رسالة إلى أدريان، من أحد أصدقائه في لندن، تطلب حضوره المستعجل لأمر ضروري. ولبراءته لم يطرأ الخداع بباله. وركبت مصاحبا إياه إلى ستينز . كان متحمسا، ووعدني بأن يعود سريعا، ذلك أن وجوده شرط لرؤيتي لآيدرس. وكانت سعادته البالغة نقيض ما شعرت به؛ فقد شعرت بشر يتربص بي؛ فمشيت متمهلا في عودتي، وأنا أعد الساعات للقاء آيدرس. ما سبب هذا الشعور؟ أي شر قد يقع في هذا الوقت؟ أيكون نية والدتها استغلال غياب أدريان لتخضعها قهرا لما تريد، أو تحبسها؟ وقطعتُ مخاوفي تلك بأن قلت لنفسي، ليكن ما يكون، سأراها غدا. وهدأت نفسي لهذا القول. غدا، سأراك يا أجمل وأحب بهجة إلى قلبي، غدا،

سأراك، ولن أتأخر ثانية عن لقاءك.

ذهبت لأستريح، وعند منتصف الليل أيقظني طرق عنيف على الباب. كنا في منتصف الشتاء حينها، وكان الثلج في تساقط؛ وهبت الرياح عاصفة على الأشجار العارية، لتزيل عنها ندف الثلج؛ فاختلط عزفها الكئيب بصوت الطرق المستمر، وامتزجا مع حلمي. أخيرا، استيقظت، وارتديت ملابسي على عجل، واتجهت إلى الباب مصدر الإزعاج، لأفتح لهذا الزائر غير المتوقع. وقفت آيدرس أمامي ضامة يديها إليها، شاحبة كالثلج المتساقط من حولها. «أنقذني!» صرخت، وكادت أن تقع لولا أن أمسكتها. وبسرعة عادت إلى وقوفها، ورجتني أن أعطيها حصانا وأركب معها تجاه لندن إلى أخيها، ملجئها الأخير. أجبت بأن لا حصان لدي، فاعتصرت ألما. «ماذا سأفعل؟» صاحت، «يا لبؤسي! سنضيع إلى الأبد! أرجوك، تعال معي، ليونيل؛ لا يجب أن نبقى هنا، سنأخذ عربة من أقرب مكتب بريد، لا يزال لدينا متسع من الوقت، تعال معي، أنقذني، احمني!»

استمعت إلى رجائها المثير للشفقة، ونظرت إلى ثوبها الممزق، وشعرها الأشعث، ونظرات الرعب في عينيها، واعتصارها ألما، فسألت نفسي، أفقدت عقلها؟ «عزيزتي»، قلت وأنا أضمها إلى صدري»، من الأفضل أن تستريحي، سأشعل نارا، فجسدك بارد».

صرخت، «أرتاح! أتهذي يا ليونيل! إن تلكأنا سنضيع إلى الأبد؛ أرجوك تعال معي، إلا إن كنت تنوي التخلي عني».

كان هذا حلما بلا شك، أعني أن تسير آيدرس -ابنة الملوك، وربيبة العز والرخاء- في هذا الليل البهيم وهذه العاصفة الثلجية الهوجاء، تاركة غرفتها الملكية، إلى كوخي الوضيع، لترجوني أن أهرب معها، فهذا حلم بلا شك. إلا أن صوتها النائح وتنهداتها أكدت لي أنه لم يكن حلما. نظرت حولها بحذر، وكأنها تخشى أن يسمعها أحد ما، ثم همست: «علمت أنه في صباح هذا اليوم، الذي دخلنا، سيأخذني رجال نمساويون، استعملتهم أمي، إلى ألمانيا، لأسجن أو أزوّج، لست أدري، بعيدا عنك وعن أخي. خذني بعيدا قبل أن يصلوا أرجوك!»

أرعبني تشنجها، وظننت أن هناك خطأ ما فيما روت؛ إلا أن التردد زال عني في إطاعتها. فقد مشت من القلعة إلى هنا، مسافة ثلاثة أميال، في منتصف الليل، ووسط هذه العاصفة الثلجية؛ ورأيت وجوب وصولنا إلى إنجليفيلد جرين ، على بعد ميل ونصف، للحصول على عربة. وقالت لي أنها حافظت على رباطة جأشها حتى وصلت إلى كوخي وانهارت هناك. وبالكاد استطاعت المشي. وعلى إسنادي لها، إلا أنها ظلت تتلكأ في مشيها. وبعد قرابة النصف ميل انفلتت من يدي وخرت على وجهها في الثلج،

ورفعت وجهها باكية وهي تشكو عدم قدرتها على المشي. فحملت جسدها الخفيف، ولم أشعر بأي ثقل، إلا في صدري، الذي جاشت فيه المشاعر المتضاربة. فامتلأت بهجة. وفي نفس الوقت، كان لمس يديها الجامدتين لي كالصاعقة؛ فكان يثيرني لألمها وخوفها. وملأني وضع يدها حول عنقي، ولفح أنفاسها لشعري، وقرب قلبها من قلبي، بالنشوة الغامرة التي أنستني ما نحن فيه؛ حتى يُعيدني أنينها المكبوت، واصطكاك أسنانها، الذي حاولتْ بلا جدوى أن توقفه، ومظهرها الباعث للألم، إلى وعيي ليذكرني بوجوب الاستعجال. وأخيرا قلت لها، «ها قد بلغنا إنجليفيلد جرين؛ وها هو النزل. ولكن، إن رآك الناس على هذه الحال، لن يطول الوقت قبل يعرف مطاردوك وجهتك؛ أليس من الأفضل لو استأجرت العربة لوحدي؟ سأتركك في مكان آمن، بينما أقوم بذلك».

وافقتني، وأذنت لي أن أفعل ما أشاء. ولمحت باب حظيرة نصف مفتوح. فدفعته فاتحا إياه؛ ووضعت جسدها المنهك فوق القش وغطيتها بردائي. وخشيت أن أتركها، لما بدت عليه من ضعف وشحوب؛ إلا أنها سرعان ما استعادت بعضا من قوتها، وناشدتني، مدفوعة بالخوف، ألا أتأخر. لم يكن طلب العربة من رب النزل، وتجهيز الخيل -حتى لو جهزتها بنفسي- أمرا يستغرق

سوى بضع دقائق، إلا أن كل دقيقة منها مرت كأنها دهر. فطلبت من فتى النزل أن يستعجل إحضار العربة، وحين عاد، طلبت منه أن يوقفها عند الحظيرة، حيث وقفت آيدرس تنتظرني بعد أن استجمعت بعض قوتها. رفعتها إلى العربة، ثم أكدت لها أننا -بهذه الخيول الأربعة- سنكون في لندن قبل الخامسة فجرا، موعد اختطافها المزمع. وتوسلتها أن تهدأ؛ ففعلت بعد نوبة بكاء قصيرة، وتدريجيا، حكت لي قصة هذا الخطر المحيق.

في ليلة سفر أدريان، خاضت معها والدتها نقاشا ساخنا حول ارتباطها بي. وحاولت بالترغيب، والترهيب، والتوبيخ، إلا أنها لم تفلح في ثنيها عني. وبدا أنها تظن أنني كنت السبب في خسارتها لريموند؛ وكنت بالنسبة لها باعث الشر في حياتها؛ بل واتهمتني بأنني من فاقم جنون ابنها وزاد من تخليه عما رسمت له من خطط العظمة. والآن جئت -أنا الجبلي الحقير- لأتوج كل هذا باختطافي لابنتها. ولم تلجأ الكونتس الغاضبة إلى اللين والرفق في محاولاتها؛ ولو فعلت لما تنبهت آيدرس لشرها. إلا أن آيدرس حين نهضت للدفاع عن خيار الارتباط بي، طفرت من عيني والدتها نظرة احتقار المنتصر للمهزوم الغافل؛ فأيقظت مخاوف آيدرس. وحين افترقوا ليلا، قالت الكونتس، «ستغيرين رأيك غدا. قد أثارك ما دار بيننا من

حديث، فهدّئي من نفسك، ونامي جيدا؛ سأرسل لك دواء أستخدمه كلما ألمَّ بي الأرق، سيمنحك نوما هانئا».

وما أن خلدت إلى سريرها، مصحوبة بالشك، حتى تبعتها خادمة والدتها بجرعة من الدواء، فزادت شكوكها، وعزمت أن لا تأخذ جرعة الدواء. وتجنبا لأي خلاف، وحتى تعرف صحة شكوكها من عدمها، مثلت شرب الدواء أمام الخادمة، مخالفة ما اعتادت عليه من صراحة. واستلقت قلقة على فراشها، بعدما رأت من والدتها وفعل خادمتها. ولم يطل الوقت حتى قفزت على صوت فتح الباب، وسمعت همسا من خلفه يقول، «لم تنم بعد»، قبل أن يغلق الباب. وتوقعت زيارة أخرى، فانتظرت بقلب مرتعب، وحين فتح الباب من جديد بعد حين، وبعد أن تأكدت من أن المتطفلين هم والدتها ومرافقتها، تظاهرت بالنوم. ولم تجرؤ على الحركة، مع اقتراب الخطوات من السرير، وجاهدت لتسكن خفقان قلبها، الذي بلغ حنجرتها، حين سمعت والدتها بصوت خفيض، «أيتها الساذجة، لا تعلمين أن عبثك قاربَ على الانتهاء إلى الأبد».

كانت آيدرس على وشك القفز من فراشها، حين سمعت والدتها تكلم مرافقتها من جديد، قاصدة آيدرس: «عجلي»، قالت، «فلا وقت لدينا. تخطت الساعة الحادية عشر، وسيكونون هنا عند الخامسة

صباحا؛ خذي فقط ما تحتاج من ملابس لهذه الرحلة وصندوق مجوهراتها». أطاعت الخادمة الأوامر، وتبادل الاثنتان بضع كلمات، لم تفت سمع ضحية الفجر. وسمعت اسم خادمتها يذكر؛ «لا لا» قالت والدتها، «لن تأتي معنا، يجب أن تنسى الليدي آيدرس إنجلترا وكل ما يرتبط بها. لن تستيقظ إلا عند نهاية النهار غدا، وحينها سنكون في البحر». أخيرا قالت الخادمة، «كل شيء جاهز». واقتربت الكونتس من جانب سرير ابنتها مجددا: «ستطيعين أمري في النمسا. حيث تُفرض الطاعة. ولا خيار لك هناك إلا الزواج الكفؤ، أو الحبس الكريم».

وأثناء خروجهما من الغرفة قالت الكونتس، «بهدوء، فالجميع نيام؛ إلا أنهم لم يشربوا المنوم مثلها. لا نريد أن يشك أحد، وإلا بلغها الأمر فتقاوم أو تهرب. تعالي معي إلى غرفتي، سنظل هناك إلى أن يحين الموعد المحدد». ثم خرجتا. مع الذعر الذي اجتاحها حافظت آيدرس على رباطة جأشها، وارتدت ملابسها على عجل، ونزلت من السلالم الخلفية متجنبة غرفة والدتها، وهناك وجدت نافذة منخفضة، استطاعت الهرب منها. وجاءت إلى كوخي وسط هذه الرياح، والثلج، والظلمة؛ ولم يخفت عزمها حتى وصلت إلي، مسلمة إياي مصيرها.

هدأت من روعها قدر استطاعتي. وكانت الغبطة والسرور نصيبي، لأني منقذها ورفيقها. إلا أنني كتمت ما بي من فرح، حتى

لا أثير عضبها وريبتها. وجاهدت ألا ترى شيئا من طرب قلبي؛ فأشحت نظري عنها، حتى لا ترى ما يشع به، على الظلام، من حب، وزهو، وما ينطق من تعابير النشوة. ولم يطل الوقت حتى وصلنا إلى لندن، وكم رجوت لو طالت الرحلة بنا؛ إلا أنني سعدت لمَّا رأيت الروح عادت إلى حبيبتي عند لقائها أخيها، واثقة بأمنها من كل شر.

كتب أدريان رسالة موجزة إلى والدته، يعلمها فيها أن آيدرس تحت رعايته وحمايته. وبعد عدة أيام، جاء الرد أخيرا، من كولونيا. وكتبت المتغطرسة خائبة الأمل، «لا نفع من كتابة إيرل وينزر أو أخته، إلى والدتهما، كسيرة القلب؛ فسبيلها الوحيد إلى الراحة هو نسيانهما. بعد أن خالفوا أوامرها، وحاربوا رغبتاها. وليست تشكو؛ فلن تجد في بلاط أخيها، عقوق أبناء يؤذيها، بل عيشا كريما قد يسليها في مصيبتها. وهكذا، طلبت أن لا يكاتبوها مجددا.

كانت هذه الأحداث التي جمعتني وأخت أعز أصدقائي، معشوقتي آيدرس. فأزاحت ببراءتها وإقدامها كل عقبة في طريق سعادتي، ولم تألُ جهدا في ذلك. ولم يكن لي من سبيل، لأرد لها كل هذه النعم، إلا أن أعمل جاهدا لأكون كُفئا لها.

الفصل السادس

ليسمح لي القاري أن أعرفه على حلقتنا السعيدة، التي التأمت بعد بعض من الوقت. سكنت وأيدرس وأدريان في قلعة وينزر؛ بينما سكن ريموند وبرديتا في بيت بناه ريموند عند حدود نهاية حديقة وينزر، قريبا من كوخ برديتا، حيث تبدلت حياتنا إلى الأفضل. وعلى تفرُّق ما يشغلنا من أعمال، إلا أننا كنا نجتمع على حب الكثير من الأمور المشتركة. فكنا نمضي -أحيانا- أياما بطولها، تحت ظلال الأشجار، مع كتبنا وآلاتنا الموسيقية. كان هذا حالنا في تلك الأيام النادرة، حيث تعلو الشمس في سماء صافية، ولا يعكر الجو رياح عالية، ويكتنف السكون الأحاسيس. وحين كانت الغيوم تحجب الشمس، وتهب الرياح فتتقاذفها يمنة ويسرى، مفرقة جمعها، وناثرة إياها على امتداد السماء، كنا نركب قاصدين منتجعا آخر حيث جمال الطبيعة والسكون. أما حين يضطرنا المطر إلى البقاء في البيت، فكان نهارنا يمضي في القراءة، وليلنا في الموسيقى والغناء. وهبتُ آيدرس حسا موسيقيا عاليا، وصوتا دُرب بعناية، فكان جهوريا وعذبا. وكان العزف مهمتي أنا وريموند، بينما اكتفى أدريان وبرديتا بالاستماع. كنا سعداء كالربيع، ومرحين كالأطفال؛ فما كنت ترى إلا ابتسامات

على الشفاه، وعلامات رضى وحبور على الوجوه. وكانت أجمل لقاءاتنا في كوخ برديتا؛ حيث لم نمل الحديث عن ذكريات الماضي، وخطط المستقبل. ولم يكن للحسد ولا القلق مكان بيننا؛ ولم يعكر صفونا خوف من تقلب الدهر. وبينما تمنى الناس السعادة، عشناها.

يحصل أن نفترق أحيانا فراق صغير، حين تمشي آيدرس وبرديتا مبتعدتين عنا، ونبقى جالسين، نناقش أحوال الأمم، وفلسفات الحياة. وكان الاختلاف الكبير بيننا مُنعشا لتلك المناقشات. وكانت لأدريان اليد الطولى في العلوم والفصاحة؛ بينما تفوق ريموند ببصيرته، وخبرته في الحياة، فكان معارضا دائما لأدريان، مما أبقى النقاش مشتعلا. وفي بعض المرات كنا نقضي نزهات تستمر لعدة أيام، قاطعين أرجاء البلاد، لبلوغ بقعة اشتهرت بجمالها. وكنا نزور لندن أحيانا، لننخرط في عالمها المزدحم؛ وأحيانا أخرى كان يصخب مسكننا القصي، بزوار من هناك. ولم يزدنا حالنا هذا إلا سعادة وقربا من أحبائنا؛ فكنا هانئين في غابتنا العظيمة، ومساءات قلعتنا الحبيبة.

كان الصدق، والرقة، والحب سمات آيدرس ذات المزاج الرائق الذي لا يتعكر؛ وعلى استقلال روحها، إلا أنها كانت سهلة

القياد لمن تحب. أما برديتا، فكانت طباعها أقل كمالا؛ إلا أن الحب والنعيم رققا طبعها، وحسنا مزاجها. وصارت أكمل عقلا، وأنشط ذهنا؛ واجتمع فيها الإخلاص، والعطاء، والعقل. أما صديقي الذي لا مثيل له، أدريان، المرهف والسامي، المحب للجميع، والمحبوب من الجميع، بدا بعيدا كل البعد عن إيجاد نصفه الثاني المكمل لسعادته. وكان كثير التجوال وحيدا، في الغابة، أو مبحرا في قاربه الصغير، لا رفيق له سوى الكتب. وتراه أحيانا أسعدنا، إلا أنه كان الوحيد الذي يبدو عليه القنوط أحيانا؛ فرزح جسده النحيل تحت وزن روحه المثقلة. ولم يكن حبي وإخلاصي له أقل مما حملت لأخته؛ وأحبته هي، كمعلمها، ومربيها الذي حرص على سعادتها. أما ريموند، الذي لا يهدأ، فقد ترجل عن حلمه في منتصف الطريق، راضيا بالتخلي عن المُلك، تاركا الفرصة لنا، إن شئنا. كانت مملكته قلب برديتا، وأفكارها رعيته؛ فأحبته، وأجلته، وكان الآمر الناهي عليها. ولم يكن يضجرها شُغل، أو نَظَر ما دام متعلقا به. فكانت أحيانا تتركنا لتتأمله؛ فتدمع عيناها فرحا لأنه لها. وبنت معبدا له في أعماقها، وكانت كعابد أقسم على خدمة معبوده. وأحيانا، كانت تعصي وتثور؛ إلا أنها كانت ترجع إليه خاضعة. وكان عدم اعتدال مزاجها الدائم ملائما له، ذلك أنه لم يكن يهوى الحياة الهادئة.

في عامهم الأول، أنجبت برديتا، لريموند، فتاة كالقمر. وكان طريفا أن يُرى ملامح والدها في وجهها الضئيل. مثل شفتيه المستخفتين، وابتسامته الظافرة، والعيون المتقدة ذكاء، والجبين والشعر الكستنائي؛ بل حتى يديها وأناملها كانتا كيديه وأنامله. وكم كانت غالية على برديتا! ومع مرور الوقت، صرت أبا أنا؛ وأثار بنا هؤلاء الصغار، فلذات أكبادنا، ألف شعور جديد.

وهكذا مرت سنين. وجرّ كل شهر شهرا وراءه، وكل عام كالذي قبله؛ وكانت حياتنا تجسيدا حيا لما قاله بلوتارخ ، «إن أرواحنا مجبولة على الحب، كما جُبلنا على الإحساس، والتعقل، والفهم، والتذكر». وطالما ناقشنا أمر المستقبل، وما ننوي إنجازه فيه، إلا أننا لم نغادر وينزر، عاجزين عن فك قيد سحر حياة العزلة. وكأن فيه أنفس الناس والأشياء في هذا العالم. وزادنا تلكؤا ما جاءنا من أبناء، فعللنا أنفسنا بأننا سنربيهم ليشغلوا أعلى المناصب. وأخيرا، حدث ما عكر سكينة عزلتنا، وأخرجنا منها بعد خمس سنوات هانئة، موقظا إيانا من حلمنا الرائق.

إذ جاء موعد اختيار رئيس جديد؛ ونزولا عند رغبة ريموند، ارتحلنا إلى لندن، لنشهد الانتخابات، ونشارك فيها. ولو كان ريموند تزوج من آيدرس، لكان هذا المنصب حجر أساس لحلمه

الكبير؛ ولتحقق رغبته في السلطة والشهرة. ولكنه اختار نشوة الحب على الصولجان، اختار برديتا على المملكة.

هل خطر هذا بباله في طريق سفرنا إلى المدينة؟ تأملته، ولكن لم أستشف منه شيئا. فقد كان مبتهجا بشكل استثنائي، ملاعبا للأطفال، ومحولا أي كلمة إلى نكتة. وربما كان يتصرف على ذلك النحو، لِما رأى من تقطب جبين برديتا. التي حاولت أن تشرح صدرها، إلا أن الدموع عاودت عينيها بين الحين والآخر، ونظرت إلى ريموند وطفلتها بحزن، وكأنها تستشرف وقوع مصيبة. وهكذا، ظللها هاجس من الشر. وأطلت من نافذة العربة، ناظرة إلى الغابة، وأبراج القلعة، ومع احتجابهما خلف ما عرض في الطريق، هتفت بحرارة، «يا وجه السعادة، وموطن الحب، متى أراك مرة أخرى! وهل ستراك برديتا بقلب فرح، أم ستهيم في أرجاءك بقلب كسير؟» فقال ريموند، «أي سخافة هذه؟ ما الذي يشغل بالك، وأحالك فجأة إلى الكآبة؟ ابتهجي، وإلا أرسلتك إلى عربة آيدرس، واتخذت أدريان مكانك رفيقا؛ إذ يبدو لي من وجهه أنه موافق لمزاجي».

اقترب أدريان -الذي كان على ظهر حصان- من العربة، وبإضافة مرحه إلى ما عند ريموند، بددا حزن أختي.

دخلنا لندن مساء، متجهين إلى مساكننا قرب الهايد بارك.

زارني ريموند باكرا في الصباح التالي. «أتيت إليك»، قال، «و أنا أشك بأنك ستناصر ما أنوي فعله، إلا أنني قررت أن أمضي في الأمر سواء أيدت أم لم تؤيد. وأرجو ألا يخرج ما دار بيننا هنا إلى أحد، فإن رفضت مناصرتي، أرجو ألا تكشف خطتي».

«أعدك بذلك، والآن...»

«والآن يا صديقي العزيز، لأي شيء جئنا إلى لندن؟ لنحضر الانتخابات، وندلي بأصواتنا، بنعم أو لا لريلاند المزعج ذاك؟ أتصدق، يا فيرني، أنني أتيت بك إلى المدينة لهذا السبب؟ لا، جئنا إلى هنا ليكون لنا مرشحنا. سنرشح شخصا، ونضمن فوزه. سنرشح أدريان، ونبذل جهدنا، لينال السلطة التي يستحق بحكم الوراثة، وما به من الفضائل الأخرى».

«قبل أن تجيب؛ أعرف كل اعتراضاتك، وسأجيب عليها بالترتيب. أولا: السؤال ما إذا كان سيقبل الترشح أم لا؟ دع مهمة إقناعه في هذه النقطة لي، لست أطلب مساعدتك في ذلك. ثانيا: أيجب عليه ترك قطف التوت، والعناية بطيور الحجل الجريحة،

ليقود الأمة؟ عزيزي ليونيل، نحن رجال متزوجون، ولدينا ما يشغلنا في زوجاتنا وأبنائنا. ولكن، أدريان رجل عزب، لا ولد له، ولا شغل يشغله. وقد تأملته طويلا. فرأيته يصبو إلى شيء يحييه. ولكن قلبه المنهك مما مر به سابقا، يجفل، كمن يخاف الإصابة من بعد التعافي من أي مغامرة سانحة. إلا أن ما به من عقل، وفضيلة، وحب للخير بحاجة إلى ميدان تبرز فيه؛ وهذا ما يجب أن ندبره له. ثم، أليس من العار أن يموت أدريان الفذ، بدون أن يُحصل منه نفع للأمة؟ أتظن أن الطبيعة خلقت ذلك الإنسان الفائق، عبثا؟ صدقني حين أقول، أنه خلق ليكتب فصلا جديدا، لا نظير له، في تاريخ إنجلترا. أولم تغدق عليه الطبيعة من نعم النسب، والثراء، والمواهب، وطيب النية؟ أولا يحبه الجميع؟ أولا يسره أن يعبر عن حبه للجميع بتسلمه لهذا الأمر؟ أرى أنك اقتنعت بما أقول، وأحسبك ستكون في صفي، حين أعرض عليه الأمر هذا المساء في البرلمان».

قلت، «أفحمتني، ولكن بقي أن يوافق أدريان. ولكنني أطلب منك أمرا واحدا؛ ألا تقوم بأي شيء بدون موافقته».

قال ريموند، «حق ما طلبت، مع أنني فكرت بأن أرتب الأمور بشكل مختلف. إلا أن لك ما طلبت. سأذهب إلى أدريان حالا؛

وأرجو منك، إن وافق، ألا تفسد علي خطتي، بإقناعه بالعودة إلى حياة السناجب في غابة وينزر.

ويا آيدرس، لن تفشي سري؟»

أجابت، «ثق أنني سألتزم الحياد».

«أما أنا»، قلت، «فمقتنع تماما بأنه كفؤ لذلك المنصب، وبالخير الذي سيعود على أبناء بلدي إن تولى الأمر، لذا لن أحاول إقناعه بالعكس، لأحرم بلدي منه، إن وافق».

في المساء، زارنا أدريان. «أتتآمر علي أيضا؟» قال ضاحكا، «هل ستقف في صف ريموند، وتحاول جر حالم مسكين، من السماء إلى الأرض، لتحيطه بنيرانها الصاخبة، بدلا من تركه يتنسم هواء السماء وينعم بأشعتها؟ ظننتك تعرفني».

أجبت، «أعرف أنك ستسر في منصب كهذا، لما ستقدم من خير للناس؛ وأن هذه فرصة لك، لتقيم ما تشتهي من إصلاحات، ونظام الحكم الأمثل، الذي طالما تكلمت عنه بجذل».

«تتكلم عن حلم منسي»، قال أدريان، وقد أظلم محياه قليلا،

«قد تلاشت أحلام صباي، منذ زمن، حين عرفت الواقع؛ وعرفت أنني لست رجلا يصلح للحكم؛ وسأكون راضيا لو أنني استطعت السيطرة على نفسي. لكن، ألست ترى، يا ليونيل، النزعة التي في صاحبنا؟ قد لا يكون عالما بها، ولكن هذا ما أرى فيه. لم يخلق اللورد ريموند ليقنع بالعيش حياة رتيبة في الريف. يظن أن عليه أن يقنع بحياته الحالية؛ وأن وضعه الحالي يعيقه عن سلوك درب العظمة؛ لذا لم يخطر بباله أن يحاول ذلك. ألا تظن أنه بترشيحه لي، رسم طريقا لنفسه، ليوصله إلى حياة العظمة التي طالما تاق إليها؟

لنساعده على ذلك. فالرجل نبيل، ومولع بالحرب، وفيه كل صفات العظمة؛ ولا أصلح منه لمنصب الرئيس. وسيفوز بالتأكيد لو قدمناه كمرشح، مما سيتيح له إنجاز كل أمر عظيم في نفسه. حتى برديتا ستسر لذلك. برديتا التي كتمت أملها، إلى أن تم بالزواج من ريموند؛ سيسرها أن ترى إنجازات وأمجاد زوجها. وبينما هم في ذلك، نعود نحن مثل كوينكتيوس ، إلى قلعتنا وأشغالنا، إلى أن يطلبنا صديقنا، لعون نقضيه له هنا».

استمر أدريان في حديثه، وبدا أن الأمر سهل التنفيذ. وكان رفضه لدخول الحياة السياسة أمرا لا يتزعزع عنه، وأعانه على ذلك

تحججه بضعف صحته. كانت الخطوة التالية هي إغراء ريموند بأن يبوح بما يخالجه من أفكار العظمة والشهرة.

دخل علينا بينما كنا نتحدث. وقد كان رفض أدريان، باكرا، لما أقترحه عليه، ورده عليه، قد أحيا في ذهنه ما كنا نتداول الآن. وبدا على محياه وسلوكه التردد والقلق؛ وكان قلقه من أننا لن نصدق العزم في دعم توجهه، وتردده من خشية الهزيمة في الانتخابات. وكانت بضع كلمات تأكيدا منا، كفيلة بإعادة الفرح إلى عينيه؛ ففكرة توليه لمنصب ملائم لطبيعته، وطموحه، نفخت فيه النشاط والإقدام من جديد. وناقشنا فرصه في الفوز، وما يميز المرشحين الآخرين، وكيفية جذب الناخبين.

بيد أننا أسأنا التقدير. فقد فقد ريموند الكثير من شعبيته، وتركه كثير من أشياعه. ونسيه الناس لغيابه عن الساحة السياسية؛ أما رفاقه السابقون في البرلمان، فقد كانوا جميعا من الملكيين، الذين كانوا داعمين له حين رأوا فيه وريثا محتملا، لمنصب إيرل وينزر، إلا أنهم لم يعودوا يولوه أي اهتمام، بعد فشله في تأمين الإيرلية لنفسه، وصار في أعينهم فردا عاديا كغيره. ولكن مع ذلك، كان له العديد من الأصحاب، والمعجبين؛ وحضوره في البرلمان كان ذا آثر واضح. وأدريان كذلك، على توجهه وإيمانه المخالف

للحزب، كان له العديد من الأصحاب، الذين سيصوتون لأي مرشح من اختياره.

كان المرشحان الآخران: أحد الدوقات، ورايلاند، خصمه القديم. وكان داعم الـدوق، جميع النبلاء في الجمهورية، لاعتقادهم بأنه خير من يمثلهم. أما رايلاند، فكان مرشح الشعب؛ وحين أدرج اسم ريموند في اللائحة، بدت فرصه في الفوز ضئيلة. وخرجنا بعد النقاش الذي أعقب ترشحه، بالخزي، واكتسى ريموند بالقنوط. وجاءتنا برديتا ساخطة. فبعد أن كانت متأملة خيرا في هذه الخطوة، وسعيدة بها، تبدلت نظرتها إلى اليأس، حين عرفت ضعف فرص نجاح ريموند. وظنت أن ريموند لن يعود إلى وينزر إلا متبرما، بعدما استيقظت فيه هذه الأحلام. فلن يقيد غرائزه شيء، بعد أن عادت همته إلى الحياة، ولن يفارقه طلب المجد طوال حياته؛ وتنبأت بأن هزيمته في هذه الانتخابات، ستورثه كدرا وهما لا يزولان. ولربما زادها ضيقا ما أحست به من خيبة أمل في نفسها؛ أما نحن فزادنا التفكير في الأمر قلقا.

كان لابد لنا من أن نمضي في حملته، وأن نقنع ريموند بأن يقدم نفسه للناخبين مساء الغد. ولكنه عاند لوقت طويل. وتمنى لو أنه ركب منطادا ليطير به إلى أبعد مكان في الأرض، حيث لا

يعرف اسمه ولا عاره هزيمته. ولكن، لم يعد ذلك ممكنا؛ فقد قيد اسمه، وأعلن إلى العالم ترشحه؛ ولن يمحو شيء عاره من ذاكرة الرجال. ولكن، كان خيرا له أن يهزم بعد كفاح، على أن يفر الآن.

و ما أن رأى الأمر من هذه الزاوية، حتى تغير حاله كلية. فزالت عنه الكآبة والقلق؛ ودبّ فيه النشاط والحيوية. وعادت ابتسامة الظفر إلى شفتيه؛ وظهرت بشائر النصر في تعابير وجهه، وحركاته، وعزم على المضي إلى النهاية، ليحقق ما يريد. ولكن، برديتا لم تكن كذلك. فقد أذعرها فرحه، وخافت أن يكون يعود حزنه أشد مما كان. وإن كان تفاؤله ملهما لنا بالأمل، فلم يلهمها إلا جزعا شديدا. وخافت أن تفقده؛ إلا أنها لم تجرؤ على إفساد مزاجه. واستمعت باهتمام كبير إلى كلامه؛ إلا أنها كانت تحرف كل كلمة عن معناها، لتوافق خوفها. ولم تقو على حضور المناظرة؛ بل ظلت في المنزل ينتهبها الجزع. فبكت لمستقبل ابنتها؛ ولم تتحدث إلا عن قرب وقوع الكارثة. وكانت لفرط جزعها، في حالة أشبه بالجنون.

قدم ريموند نفسه في البرلمان بثقة وبراعة بالغين. فبعد أن أنهى الدوق والسيد رايلاند خطابيهما، تقدم هو. ولم يكن حافظا لخطابه؛ فتلعثم في البداية، وتوقف لأكثر من اللازم، وخانته تعبيراته. إلا أنه

تمكن من الموقف تدريجيا؛ فتدفقت كلماته بسلاسة، وامتلأت لغته بالحيوية والاقناع. وعرج على حياته السابقة، وعلى نجاحاته في اليونان، وشعبيته في بلده. وزاد، أن السنين السابقة والزواج أضافا إليه حرصا أكبر على بلده؛ وهذا مما يعزز أهليته للمنصب. ثم تكلم عن الإجراءات التي ينوي اتخاذها، لتعزيز أمن إنجلترا، وزيادة ازدهارها. ورسم صورة باهرة لحاضرها، ومستقبلها. ولم تكن تسمع صوتا أثناء حديثه. إذ علقت أسماع وقلوب السامعين بصوته وحديثه. وكان -إلى حد ما- الأمثل لتوحيد الأحزاب كلها. فكان نبل أصله مرضيا للنبلاء؛ وكانت تزكية أدريان له -من عرف عنه تحالفه مع حزب الشعب- سببا في التفات الكثيرين حوله.

كانت المنافسة محمومة. وكنت وأدريان على أعصابنا، وكأنه نجاحنا الشخصي؛ فنحن من حثه على الترشح، ونحن أكثر من يرجو نجاحه. أما آيدرس، المتمتعة بعقل رزين، فقد تابعت الانتخابات بشغف؛ بينما كانت أختي المسكينة، خالية من الأمل، واجتاحها القنوط واليأس.

تعاقبت الأيام ونحن نخطط كل يوم لمناظرة المساء، وكل مساء كانت تقوم مناظرة لا تفضي إلى شيء. وأخيرا، أزفت الكارثة؛ إذ وجب على البرلمان، الذي طال تأخيره للاختيار، أن

ينتخب مرشحا قبل منتصف الليل، وإلا حل بحسب الدستور.

احتشدنا وأشياعنا في منزل ريموند. وعند الخامسة والنصف، اتجهنا إلى البرلمان. وانشغلت آيدرس بتهدئة برديتا؛ إذ أفقدها قلقها الشديد القدرة على السيطرة على نفسها. فذرعت الغرفة مجيئا وذهابا، ونظرت بفزع لأي داخل للمنزل، وكأنه نذير هلاكها. والحق أن ما كانت به من عذاب لم يكن حزنا على نفسها. فقد كانت الوحيدة العارفة بأثر هذه الانتخابات على ريموند. بينما أظهر لنا ريموند الفرح والاستبشار بالخير، وأجاد لبس ذلك القناع، حتى لم يخطر ببالنا ما كان يعتمل فيه. ولكن ظهر لبرديتا ما كانت نفسه تقاسي في بعض فلتاته، حين تعروه رعدة، أو تفلت من صوته نبرة ألم، أو كان يأخذه الشرود؛ في حين لم نر منه، لانهماكنا في أمر الانتخابات، إلا ضحكته، ونكاته الحاضرة في كل وقت، وعلو همته، التي بدا أنها لا تنحسر. أمّا برديتا التي كانت معه في البيت؛ فكانت ترى انقلاب مزاجه، حين يخلع بهجته المصطنعة؛ وتلاحظ فزات نومه، وانفعالات ألمه، وحين رأت دمعته في إحدى المرات، لم يكف دمعها؛ فقد رأت في ذلك انسكابا لكبريائه. فلا عجب إذن، أن يصل بها الحال إلى ما هي عليه. وكان هذا تفسيري لاهتياجها وقلقها؛ حتى ظهرت لي أسباب أخرى.

قبل أن نتوجه إلى البرلمان، ودعنا نساءنا. ولكون أملي بالفوز ضعيفا، رجوت آيدرس أن تعتني بأختي. ولما اقتربتُ من برديتا، سحبتني من يدي إلى غرفة مجاورة؛ وارتمت في حضني، وهي تنتحب بمرارة. حاولت تهدئتها، وأن أبشرها بالخير؛ وقلت لها، ما أسوأ ما قد يحصل، حتى لو خسرنا الانتخابات؟ «أخي»، صاحت، «احم ابنتي، أرجوك عزيزي ليونيل، فمصيري معلق بشعرة. فها أنتم الآن حولي؛ أنت، رفيق طفولتي؛ وأدريان، الغالي علي كقريب بالدم؛ وآيدرس، أخت قلبي، وأطفالها الأعزاء. قد تكون هذه آخر مرة أراكم جميعا فيها!»

وانقطعت فجأة، ثم قالت: «ما الذي قلت؟ يا لي من فتاة حمقاء!» ونظرت إلي نظرة موحشة، ثم هدأت فجأة، واعتذرت عما بدر منها من كلمات لا معنى لها؛ وقالت أن تصرفها ضرب من الجنون، فمادام ريموند حيا، يجب أن تكون سعيدة؛ ومع استمرارها بالبكاء، تكلفت ابتسامة ودفعتني للمضي في شغلي. وضم ريموند يدها، قبل خروجه، ناظرا إليها بحب؛ وبادلت نظرته تلك، بنظرة إدراك وتأييد.

ما أشد ما عانت المسكينة. لم ولن أستطيع مسامحة ريموند كلية، على ما فرض عليها من عذاب، بسبب تفكيره في نفسه فقط.

فقد خطط بدون استشارة أي منا، أن يرتحل إلى اليونان، وألا يعود إلى إنجلترا مجددا، في حال فشل في الانتخابات. وخضعت برديتا لإرادته؛ فقد كان رضاه غايتها، وقمة سعادتها؛ ولكن فراق أصحابها وشركاء أسعد أيامها، وكتم أمر تلك الخطة، كانت أمورا أكبر من أن يطيقها عقلها. وكانت مهمتها أن تستعد للسفر؛ فوعدت ريموند بأن تستغل غيابنا عن المنزل للإعداد لرحيلهم. أما هو، فكان عليه أن ينسل من بيننا لينضم لها سرا، في حال خسارته.

ومع غضبي الشديد، حين عرفت بأمر تلك الخطة، وعدم مبالاة ريموند بمشاعر أختي؛ إلا أنه تبين لي، بعد أن تأملت الأمر، أن قرار ريموند كان مصوغا بانفعاله، وغياب تفكيره، فكان غير مبال بمشاعر الآخرين. ولو كان أظهر قلقه، لكنا أعناه بالنصح؛ إلا أن تكلُّفهِ إظهار التماسك، أنهك عقله وأفقده التفكير. ولا شك عندي، أنه في أسوأ الأحوال، سيعود ليودعنا أو يستشيرنا في أمره ما أن يبلغ الشاطئ. إلا أن الأمر كان أصعب على برديتا فقد أخذ منها قسما بأن لا تفشي السر؛ فكان عليها أن تتحمل شقاء وألم مهمتها لوحدها. ولكن لنعد إلى قصة الانتخابات.

كانت النقاشات طويلة ومزعجة في الأيام السابقة؛ وأثير بعضها لغرض التأخير وحسب. إلا أن الجميع بدا خائفا من بلوغ تلك

اللحظة، قبل أن يحدد البرلمان خياره. فساد البرلمان صمت غير مألوف، وتكلم الأعضاء همسا، وسارت أعماله بهدوء وسلاسة. واستبعد الدوق في الجولة الأولى من الانتخابات؛ لتبقى المنافسة بين اللورد ريموند والسيد رايلاند. وكان هذا الأخير واثقا من النصر، إلى أن ظهر اسم ريموند مع المرشحين؛ فبذل جهدا أكبر لجمع أصوات الناخبين. فظهر مستاء، كل مساء في البرلمان، وكسا الغضب وجهه، فكان ينظر نحونا متجهما في قاعة القديس ستيفين ، وكأن تجهمه سيقضي على أمالنا بالفوز.

وُضع الدستور الإنجليزي، وكل ما فيه من قوانين لحفظ السلام. ولم يسمح بأن يكون هناك أكثر من مرشحَين في آخر يوم للانتخابات؛ ولتحاشي النزاع بين هذين المرشحَين، ينص الدستور على تقديم حافز للمرشح الذي يختار التنازل طواعية عن ترشحه؛ بأن يُعطى مبلغا كبيرا من المال ويكرم، فضلا عن تسهيل نجاحه في الانتخابات القادمة. ولكن لم يتخذ أي مرشح من قبل، هذا الخيار؛ وهكذا سقط هذا القانون من الذاكرة، ولم يعد يُذكر في المناقشات. لذا، كانت مفاجأتنا شديدة، حين بدأنا بتشكيل لجنة لانتخاب الرئيس، أن قام ممثل رايلاند، وقال بأن مرشحه قد تنازل عن ترشحه. قوبل خبره هذا بالصمت أول الأمر؛

ثم انتشرت غمغمات مرتبكة؛ وأعلن رئيس المجلس أن اللورد ريموند الفائز لكونه الباقي الوحيد، فارتفعت صيحات الفوز. وكانت كثرة الأصوات مؤكدا على رجحان كفة ريموند، حتى لو لم ينسحب رايلاند. ومع زوال الخلاف حول المرشحين، حل الاحترام والتقدير في قلوب الجميع، تجاه صاحبنا المنتصر. وشعر الجميع، بأن إنجلترا لم تر في تاريخها، رئيسا أجدر منه بهذا المنصب. وامتزجت الأصوات جميعا، لتهتف باسمه، وتملأ به القاعة.

دخل القاعة، فراقبته من أحد الكراسي العليا، وهو يمشي تجاه المنبر. وطغى تواضعه على فرحة النصر. وغشِيَهُ الخجل. فأسرع أدريان، الذي كان بجانبي، نازلا إليه، وصار بجانبه في لحظة. فتهلل وجهه لرؤية صاحبه، وفارق الخجل والتلعثم كلامه وحركته، وأشرق ببريق النصر الأخاذ. باشر الرئيس السابق مراسم التنصيب، فأملى عليه القسم، ثم منحه شارة الرئاسة. ثم انحل المجلس. والتف رجال الدولة الكبار حول الرئيس الجديد، ورافقوه إلى قصر الحكومة. واختفى أدريان فجأة؛ ثم عاد بعد أن انخفض عدد المحيطين بريموند إلى خاصة أصدقائنا، مصطحبا آيدرس لتهنئة صاحبنا بالنجاح.

و لكن، أين برديتا؟ نسي ريموند، في غمرة فرحه أن يرسل لها من يخبرها بفوزه؛ ولم تنتظر هي معرفة النتيجة. وحتى بعد مقدم آيدرس، ظل ناسيا لنفسه، إلى أن سأل عن أختي؛ وأجيب بأنها اختفت فجأة، فعاد إلى نفسه. إذ قال أدريان أنه ذهب يبحث عنها، فلم يجدها، وأنه يظن أن القلق اشتد بها، فقادها هائمة في ضواحي البلدة، وأن شرا ربما، قد أصابها. انطلق ريموند بدون أي شرح، وخلال لحظات سمعنا عدو فرسه في الشارع، رغم المطر والرياح، التي عصفت بالأرض حينها. لم نعرف وجهته، ولكننا خمنا أنهما سيعودان قريبا إلى منزلهم، وسيفضلان البقاء وحيدين، فانفض الجمع.

وصلت برديتا وطفلتها إلى دارتفورد ، باكية ولا عزاء لها. وباشرت أمر التجهيز لسفرهم المزمع، ثم وضعت ابنتها في السرير لتنام، وقضت ساعات في عذاب شديد. وكانت أحيانا تتأمل الجو العاصف، فتراه منحازا ضدها، تستمع إلى هطول المطر بكآبة بالغة. وأحيانا أخرى كانت تتأمل وجه ابنتها، سارحة في شبهها بوالدها، وخائفة من أن ترث عنه حماسه وانفعاله الجامحين اللذين سببا حزنه؛ فعادها الفخر والفرح، حين رأت ابتسامة صغيرتها، الشبيهة بابتسامة والدها، وألقها الذي طالما زين

محيا ريموند. فهدأ روعها. وقدرت أن حب ريموند لها، أغلى وأهم من أي شيء آخر في دنياها؛ وأنها لو خيرت بينه وبين سائر الأشياء، ستختاره وهي راضية وسعيدة به، إذ لا يضاهي العيش معه شيئا آخر. وسرعان ما تخيلت أن القدر وضعها تحت هذا الظرف، لاختبار إخلاصها لريموند، وأنها يجب أن تقدم تضحيتها وهي مبتهجة. فأخذت تتصور حياتهم في اليونان، وكونها سكن لزوجها، وصحبتها له، ورعايتها لكلارا الجميلة، وتكريسها نفسها لرعايته. فبدت صورة مشرقة إلى درجة صارت تخشى فيها أن يقع العكس، من أن يبقوا في لندن، وأن يُشغل المنصب الجديد زوجها عنها، وألا تكون مصدر سعادته الوحيد. حتى صارت ترجو أن يخسر في الانتخابات؛ وتذبذبت مشاعرها من جديد، بسببه، حين سمعت عدو حصانه في ساحة النزل. فقدومه إليها وحيدا، مبللا في هذه العاصفة، غير آبه بأي شيء، مسرعا إليها، يعني أمرا واحدا؛ أنهم سيفارقون إنجلترا، أرض العار والهزيمة، ليلجئوا إلى بساتين إحدى الجزر اليونانية.

وخلال لحظات كانت في حضنه. وقد اعتاد خبر الفوز، حتى نسي أن يبلغ شريكته بذلك. وأحست في عناقه شيئا يقول لها، ألا بأس علي، طالما أنت معي. وهتفت، «ما أجمل وأجل هذا الشعور

يا حبيبي! لا تخش عارا أو يأسا، طالما أنا بجانبك؛ لا تخش حزنا، طالما ابنتنا معنا. لنذهب أينما شئت؛ فطالما كان الحب رفيقنا، لن يقدر علينا الأسى».

هذا ما قالته وهما متعانقان، قبل أن ترجع رأسها لتنظر إلى عينيه اللتين كانتا تشعان فرحا. «لم يا رئيستي!» قال بخفة دم، «ما الذي تقولينه؟ وأي خطة رسمت لمنفانا، في حين يجب أن تنعمي بهذا النسيج الذهبي، هنا؟»

قبل جبينها، ولكن المفاجأة كانت صدمة بالنسبة لها، فدست وجهها في صدره وأجهشت بالبكاء. فهون عليها، وبث فيها آماله ورغباته؛ وسرعان ما أشرق وجهها. ما أسعد ليلتهم تلك! وما أشد فرحهم!

الفصل السابع

بعد أن حضرنا مراسم تنصيب صاحبنا، يممنا وجوهنا شطر وينزر. وهوّن علينا قرب هذا المكان -وينزر- من لندن هذا الفراق، حين رحلنا عن ريموند وبرديتا. ودعناهم في القصر الرئاسي. وكان من الجميل رؤية أختي وهي تدخل عالمها الجديد، محاولة ملئ منزلتها الجديدة بوقار لائق. وكان الفخر فيها والتواضع في حالة حرب. ولم يكن خجلها مصطنعا، بل خافت من ألا تُعامل كما يجب، ومثل هذا الخوف كان عند ريموند. إلا أن برديتا كانت دائمة التفكير بالآخرين، ولم يكن ريموند كذلك. وتمنت أن تلاحظ فيمن حولها شعورا بأنهم أدنى منها، ولكن لم تشعر منهم بذلك، فزاد خجلها. كانت آيدرس لتكون أنسب لهذا المنصب، لنسبها، وتأديبها الذي هيأها لذلك. إلا أن اعتياد آيدرس هذه الحياة، جعله أمرا مضجرا بالنسبة لها، بينما استمتعت برديتا بكل لحظة، فوق بعض العوائق. واشتغل بالها بالكثير من الخواطر، فلم ترهب لوداعنا؛ بل كان وداعها لطيفا، ووعدتنا بأن تزورنا قريبا، ولم يحزنها سبب تفرقنا. لم يكن هناك حد لحيوية ريموند؛ ولم يحدد ما ينوي فعله بسلطته الجديدة؛ فضجّ رأسه بالأفكار، إلا أنه وعد نفسه، وأصدقاءه، والعالم، بأن تتميز فترته الرئاسية بمجد غير مسبوق.

وهكذا، عدنا إلى وينزر، إياهم مفتقدين. وشعرنا ببهجة عارمة، ونحن نفارق السياسة وأهلها، إلى خلوتنا المنعشة. ولم يكن هناك ما يشغلنا؛ إلا أنني انكببت على المطالعة، ووجدت في ذلك علاجا لروحي، التي قد أصابتها حمى الكسل. وقد أذنت لنا برديتا بأن نصطحب كلارا معنا، فكانت وطفلي الرضيعين، مصدرا لا ينقطع، للمتعة والبهجة.

كان الشيء الوحيد المعكر لصفونا، هو صحة أدريان. فقد تدهورت بشكل واضح، بدون أن تبدي أي أعراض دالة على المرض، وخشينا أن يكون أصابه السل؛ إلا أنه لم يبد وجعا أو خوفا. وآوى إلى كتبه بشغف، وكنا رفقته، التي أنس بها، حين لم يكن يقرأ. وكان يذهب أحيانا إلى لندن لزيارة ريموند، ومتابعة سير الأمور. وكانت كلارا رفيقته في أغلب رحلاته تلك؛ لترى والديها، وليأنس هو برفقتها الممتعة.

سارت الأمور، في تلك الأثناء، على خير ما يرام في لندن. وتمت الانتخابات البرلمانية، وانعقد البرلمان الجديد، وانهمك ريموند بآلاف المشاريع النافعة. وبوشر العمل بقنوات مياه، وأسواق، وجسور، ومبان حكومية، وصروح مختلفة؛ وكان محاطا دوما بالمهندسين وخطط المشاريع، التي ستحول إنجلترا إلى بلد

مهيب ومزدهر؛ وخطط للقضاء على الفقر، وتسهيل المواصلات، ليسافر المرء من مكان إلى آخر بيُسر، كالأمراء في قصص ألف ليلة وليلة. ولن ينتظر الناس رحمة الملائكة بهم، إذ باشر خطط القضاء على الأمراض، ليريح الشعب. ولم يكن هذا من المبالغات. فقد سهلت الاكتشافات العلمية، التي زادت عن السابق بشكل كبير، كل ذلك؛ فالطعام وفير، والعمل يسير بفضل الآلات. ومع ذلك، استمر الشر من نفوس بعض الناس، إذ لم يصدقوا إمكانية إنجاز ذلك، وعارضوا هذه الأفكار. فكان على ريموند أن يقنعهم، بأن الأمر قابل للتطبيق، وأنه في حال أخضع المجتمع لقوانين صارمة، نافعة، فلن يحيد عنها إلى الفوضى. ولأجل ذلك، تخلى عن حلمه بأن يدخل كتب التاريخ كمحارب عظيم، ووضع سيفه جانبا، وكرس نفسه ووقته لتلك المشاريع؛ فكان هدفه الجديد أن يلقب بالنافع لبلده.

كان على رأس مشاريعه الفنية، إنشاء معرض وطني، لعرض اللوحات والتماثيل. وكان في حوزته الكثير من اللوحات والتماثيل، التي قرر أن يهديها للجمهورية؛ وكان الغرض من هذا المعرض، أن يكون فخر فترته الرئاسية، لذا كان شديد التدقيق في اختيار التصميم لهذا الصرح. فعرض عليه المئات من التصاميم،

ورفضها جميعا. بل كتب حتى إلى إيطاليا، واليونان، ليرسلوا التصاميم إليه؛ إلا أن شيئا لم يعجبه، لِما كان يطلب في التصميم من أصالة، وجمال تام. إلى أن جاءه تصميم، يحمل عنوانا فقط، بلا اسم. كان التصميم جديدا وأنيقا، إلا أن به عيوبا كثيرة؛ ومع أنه رسم بيد ذات ذوق رفيع، إلا أن المصمم حتما لم يكن مهندسا. وتأمل ريموند التصميم بإعجاب متزايد، كلما أنعم النظر فيه؛ ولكن، كانت عيوب جديدة تظهر له كلما دقق. فكتب إلى العنوان المرفق، بأنه يرغب برؤية صاحب التصميم، ليقترح عليه بعض التعديلات.

جاء رجل يوناني، في منتصف العمر، صاحب سلوك حسن، إلا أن ريموند تفرس في سحنته فلم ير فيه مصمما. وقال الرجل بأنه ليس مهندسا، ولكن فكرة التصميم طرأت عليه فقرر أن يرسل التصميم، بلا أمل بالفوز باختيار تصميمه. وكان قليل الكلام. فحاول ريموند أن يستنطقه بالأسئلة؛ إلا أن أجوبته الحذرة كانت تعود بالحديث إلى التصميم. فأشار ريموند إلى الأخطاء، والتعديلات التي يود أن تتم؛ ثم قدم قلما من رصاص إلى الرجل ليقوم بالتعديلات، إلا أنه قال بأنه فهم المطلوب منه، وأنه سيعمل على ذلك في بيته. أخيرا، سمح له ريموند بالانصراف.

و عاد في اليوم التالي. يحمل رسما جديدا للتصميم؛ إلا أن الكثير من الأخطاء لم تُعدَّل، وأُسيء فهم بعض التوجيهات فكانت النتيجة مخالفة للمطلوب. «تعال»، قال ريموند، «رفضت البارحة، ولكنك ستفعل اليوم، خذ القلم».

أخذ اليوناني القلم، وتعامل معه بطريقة غير فنية أبدا، وبعد مماطلة قال: «يجب أن أعترف لك يا سيدي، لست أنا من رسم هذا التصميم. ويستحيل أن تقابل المصمم؛ وعليه فكل توجيهاتك يجب أن تمر بي. وأرجو أن تأخذ جهلي بعين العطف، وتشرح لي ما تريد؛ وقريبا سترى ما يسرك».

حاول ريموند أن يستجوبه، ولكن اليوناني أبى أن يزيد على ما قال. هل لي أن أرسل مهندسا ليقابل المصمم؟ وكان جواب ذلك الرفض. فأعاد ريموند تعليماته من جديد، وانصرف اليوناني. إلا أن صاحبنا قرر أن لا يركن للجهل. وظن أن الفقر المدقع هو مانع الصمم من استقبال أي شخص ليراه في محل إقامته. وزادت هذه الفكرة فضوله للتعرف على هذا المصمم؛ فدفعه اهتمامه بهذه الموهبة المغمورة، إلى تكليف ضليع بأمور التتبع والتحري، ليتبع اليوناني بعد زيارته القادمة، ليعرف مكان إقامة المصمم. وتم ما أراد، فعاد إليه التحري بالمعلومات. بعد أن تبع الرجل إلى أحد

أفقر شوارع المدينة. فزال استغراب ريموند، معللا صد ذلك الفنان عن اللقاء بالفقر.

و في مساء ذلك اليوم، ذهب ريموند وحيدا، إلى العنوان الذي أبلغ به. وكان منظر ذلك المبنى، قذرا، حقيرا، مثيرا للبؤس. فقال ريموند في نفسه، وأسفاه! أمامي الكثير حتى أحيل إنجلترا إلى جنة. طرق الباب؛ ففتح بحبل من أعلى السلالم البالية، التي قابلته، ولكن لم يظهر له أحد؛ فطرق الباب مرة أخرى، ولكن بلا جدوى؛ حتى نفد صبره وصعد الدرج المتهالك. كان همه الوحيد، بعد أن رأى هذا السكن المذل، أن ينقذ هذه الموهبة من الفقر. وتصور أن يرى شابا ذا عينين تشعان ذكاء، وجسدا أنحله الجوع. وعلى أنه خشي أن ينفر هذا الفنان من فعله؛ إلا أنه أكد لنفسه أن حسن نيته وما سيعرض عليه من خير، لن يثيرا فيه أي ردة فعل سيئة. ومن لا يحب أن يحسن إليه؟ قد يكون الفقر، وشدته سببا لرفض ذلك البائس ذل المعونة، إلا أن المحسن يجب أن يصر بلطف على قبول مساعدته. فشجعت تلك الأفكار ريموند، وهو واقف أمام باب أعلى غرفة في المبنى. بعد أن حاول بلا جدوى فتح الأبواب الأخرى، لاحظ جوزا من النعال التركية على عتبة هذا الباب. وكان الباب نصف مفتوح، إلا أن الغرفة كانت صامتة. ظن

أن ساكن الغرفة خارج المبنى على الأرجح؛ ولكن، لثقة رئيسنا العزيز بأن هذا سكن ذلك الفنان، عزم أن يدخل ويترك كيسا من المال على الطاولة، وينسل خارجا. وامتثالا لتلك الخطة، دفع الباب ليدخل؛ ولكن ساكن الغرفة كان هناك.

لم يزر ريموند من قبل مساكن الفقر، لذا صعقه ما رأى. فقد كانت الأرضية محفورة في أكثر من مكان؛ وكان الجدار أجرد أشعث، والسقف مبقعا؛ وفي الزاوية كان السرير الرث. ولم يكن في الغرفة سوى كرسيين، وطاولة خشنة مكسورة الجانب، حملت شمعة لتضيء الغرفة؛ إلا أنه، وعلى هذه الكآبة والفقر، كان هناك نوع من الترتيب والنظافة، المفاجئين له. وسرعان ما زالت عنه كل هذه الأفكار؛ حين انتبه إلى أن ساكن الغرفة كانت أنثى. جلست على الطاولة؛ وحجبت بيدها الصغيرة وهج الشمعة عنها؛ وفي يدها الأخرى أمسكت قلما؛ وكانت منصبة التركيز على رسم أمامها، والذي لاحظ ريموند أنه تصميم المعرض. وأثار منظرها اهتمامه البالغ. بشعرها الفاحم الذي جُدل ثم لُف في عقد كبيرة، كالتماثيل اليونانية؛ كان زيها رثا، ولكن جلستها كانت مثالا للجمال. وظن ريموند أنه رأى هذه الهيئة من قبل؛ فمشى نحوها، إلا أنها لم ترفع رأسها، واكتفت بالسؤال باللغة

اليونانية الحديثة، من هناك؟ «صديق»، قال ريموند، بنفس اللغة. رفعت رأسها لتعرف من الزائر، فإذا هي إيفادني زيمي. إيفادني، التي كانت محبوبة أدريان؛ والتي صدت عن ذلك الشاب النبيل، في سبيل زائرها في هذه اللحظة؛ والتي اختارت العودة إلى اليونان كسيرة الفؤاد بعد أن تجاهلها من تحب. أي نائبة ألمت بها لتعود إلى إنجلترا، وتسكن في هذا المكان؟

عرفها ريموند، فتغير من المحسن المهذب، إلى الصديق المتعاطف بحرارة. وضرب سهم منظرها المزري هذا روحه. فجلس إلى جانبها، وأخذ بيدها، وقال لها ألف شيء، وعبر لها عن مدى رحمته وتعاطفه معها. ولم تجبه إيفادني؛ بل كانت تنظر إلى الأرض طوال الوقت، وأخيرا لمع دمعها على رموشها. وقالت، «هكذا يبكيني المعروف، بعد أن عجز الفقر والفاقة عن إدماع عيني». بكت بشدة، ودست وجهها بلا إرادة منها، في كتف ريموند؛ فأمسك بيدها، وقبل خدها المبلل بالدمع. وقال لها بأن شقاءها انتهى. لا يوجد امرؤ بمثل مهارة ريموند في تسلية النفس؛ من غير أن يُلقي خُطُبا، بل كان وجهه المشع بالرحمة الناطق عنه؛ ولا يرى المعذب فيه إلا كل جميل مسل للروح؛ ولم تثر ملاطفاته أية ريبة، لأنها نابعة من رحمة حقيقة، كرحمة الأم بولدها الجريح؛

فكان كل ما فيه معبرا عن صدق مشاعره تجاه أولئك الذين يعطف عليهم.

سعد لرؤية الهدوء يعود إلى إيفادني؛ فمازحها في أمر فقرها. وأحس أنه ليس الفقر ما يثقل روحها، بل الضعة الملازمة له، فنزع عنها ذلك الشعور؛ وأخذ يثني على صبرها بحرارة، ويذكرها بماضيها الكريم، وناداها بالأميرة المتنكرة. وعرض عليها مساعدته؛ إلا أن بالها كان مشغولا بالافتتان به، فلم ترد بالرفض أو بالقبول؛ وأخيرا تركها، ووعدها بأن يعود لزيارتها غدا. وعاد إلى منزله مفعما بمشاعر مختلطة، بالألم لحال إيفادني البائس، والسعادة لأنه وجدها. ولسبب ما، لم يخبر برديتا بالأمر.

وفي اليوم التالي، تنكر حتى لا يُعرف، وذهب لزيارتها. أشترى في طريقه سلة من الفواكه الغالية، كالتي تنبت في وطنها الأم، وغطاها بمختلف أنواع الزهور الجميلة، وحملها بنفسه إلى مأوى صديقته البائسة. وهتف وهو داخل للغرفة، «انظري، أي طعام أحضرت لطائري المعشش في سقف هذا المنزل».

قصت إيفادني الأحداث التي أدت إلى حالها هذا. فقد دمر والدها ثروته وسمعته، برغم منصبه العالي، حين انغمس في

الملذات الماجنة. وتدهورت صحته إلى درجة يصعب معها علاجه؛ فصار همه الوحيد قبل موته أن ينقذ ابنته من الفقر. لذا، قبل عرضا للزواج منها -بالنيابة عنها- وأقنعها بأن تقبل به؛ فتزوجت من ثري يوناني يسكن في القسطنطينية. وبعد أن تركت اليونان، مات والدها؛ وانقطعت علاقتها مع معظم أصحاب صباها.

تسببت الحرب التي اندلعت قبل عام من الآن، بنكبتها وزوجها. فأفلس ماليا، ومع الفوضى وتهديدات الأتراك لهم بالقتل، فروا مجبرين، وأبحروا في قارب صغير إلى أن وجدتهم سفينة إنجليزية، وجلبتهم إلى هنا. وأعانهم ما حملوا معهم من جواهر لبعض الوقت. وصبت إيفادني كل تركيزها على دعم زوجها الذي وهنت عزيمته. ولكن، اجتمع عليه، فقدان ثروته، وقتامة المستقبل في عينيه، وكونه عاطلا عن العمل بسبب فقره، فقاده كل ذلك إلى حافة الجنون. فانتحر بعد خمسة أشهر من وصولهم إلى إنجلترا.

وتابعت، «وقد تسألني، كيف عشت منذ ذلك الحين، ولم لم أطلب العون من الأثرياء اليونانيين المقيمين هنا، أو لم أعد إلى بلدي؟ وقد لا تكون أجوبتي مقنعة لك، ولكنها مقنعة لي، ولولا اقتناعي بها لما قنعت بها العيش البائس، عوضا عن طلب العون.

أتطلب ابنة النبيل -و إن كان مسرفا- زيمي العون من أقرانها أو ممن هم أدنى منها؟ أأحني رأسي لهم كالخدم، وأبيع نبلي مقابل الحياة؟ ربما كنت لأفعل ذلك، لو كان لي ولد، أو شيء يربطني بالحياة، ولكن لا شيء من ذلك. ولأن الحياة عاملتني كمعاملة زوجة الأب، سأرحل مسرورة عن منزلها، إلى قبري، حيث أنسى كبريائي، وكفاحي، وبؤسي. ولن يطول الوقت حتى يعمل الجوع نابه، فيريحني من هذه الحياة؛ وأرحل عنها غير ملطخة بالذل، لا يسوؤني شيء من أمري؛ وتطرح روحي عنها بؤسها، ويكون جزاؤها السكينة التي تستحق. وقد يكون ما تسمع مني جنونا، إلا أنك أمرؤ ذو كبرياء؛ فلا تستغرب من كبريائي، وما عزمت عليه».

بعد أن انتهت من سرد ما جرى لها، وأسباب عدم طلبها للعون من أبناء بلدها، توقفت إيفادني عن الكلام؛ ولكن، بدت وكأنها تريد قول المزيد، إلا أن الكلمات لم تسعفها. وباشر ريموند حديثه عن رغبته وما ينوي فعله، ليعيد صديقته إلى منزلتها السابقة، قبل أن تحل بها الفاقة. فبث فيه ذلك الحديث حماسا ظاهرا. ولكن خبى حماسه، حين أخذت إيفادني عهدا عليه، بألا يخبر أحدا من أصدقائهم في إنجلترا بوجودها. وقالت بغرور، «أقرباء إيرل وينزر يظنون بلا شك أنني جرحته؛ وقد يهب الإيرل بنفسه لعوني، ولكن

لا أظنني أستحق ذلك منه. فقد تصرفت حينها مدفوعة بنزوة، ولن يتغير سلوكي هذا أبدا. وعلى الأقل، لن أضطر إلى تغيير سلوكي، في هذا المسكن الفقير. ولست أريد أبدا أن أشرح قصتي وأسبابي لهم، ولا لك حتى يا سيدي اللورد، لولا أنك اكتشفتني. خلاصة القول، أنني أفضل الموت على أن يُنظر إلي باحتقار، ويقال انظروا إلى إيفادني الأبية في أسمالها، أنظروا إلى الأميرة الشحاتة! ومجرد التفكير في الأمر يسممني؛ عدني أن لا يخرج سري لأحد».

وعد ريموند بحفظ السر؛ وبدأ حديثا آخر. حيث طلبت إيفادني منه أمرا آخر، وهو ألا يقوم بأي أمر لصالحها بدون علم منها. وقالت، «لا تصغرني في عيني؛ فالفقر كان رفيقي لوقت طويل، ولم أر فيه ذلا على بشاعة وجهه. ولكن إن مسني خزي السؤال، أو ما أعده خزيا، سأكون فاقدة للشرف حينها». حاول ريموند بكل الحجج أن يقنعها بخلاف ذلك، ولكنها أبت أن تقتنع؛ بل وصل بها الانزعاج بأن أقسمت يمينا غليظا، بأن ترحل عن هذا المكان إلى مكان آخر حيث لا يجدها، إلى أن يقتلها الجوع، إن هو أصر على مخالفة ما تطلب. وقالت أنها تستطيع إعالة نفسها. ورسمت أمامه بعض الرسمات والتصاميم، قائلة بأنها تعتاش من بيع ذلك. فأذعن ريموند لما تريد. وبعد أن أحس بأنها بخير، مازحها ساخرا

من عنادها، وسادت أحاديث الصداقة بقية اليوم.

لكن الأسباب التي كانت تحركها كانت أعمق مما أبدت. فقد أحبت إيفادني ريموند. وكان البطل الذي تخيلت، ونقشت صورته بحب على جدار قلبها. وقبل سبع سنوات، في ريعان شبابها، تعلقت به؛ حين كان يخدم بلدها ضد الأتراك؛ حيث حصد انتصاراته ومجده العسكري في بلدها، الذي لا يزال أهله يقاتلون بضرارة ليأمنوا على حياتهم. إلا أنه لم يبادلها الحب حين عاد إلى إنجلترا، وظهر أمام العامة، إذ حارت عاطفته حينها بين التاج وبرديتا. وحين كان يقرر أي أمر يختار، رحلت هي عن إنجلترا؛ وبلغتها أنباء زواجه، فمات حبه في قلبها. ورأت مجد الحياة قد ولاها ظهره؛ وتلاشى لون الحب من الحياة، بعد أن كان لونها الأوحد؛ فقنعت بما لديها، وقررت أن تعيش حياتها قدر استطاعتها. فتزوجت؛ إلا أن طبعها الملول تحرك فيها، وكان الطموح محركها هذه المرة؛ فكان هدفها أن تصير أميرة للأفلاق ؛ وسرها ما يمكن أن تقدم من عون لبلدها، إن بلغ زوجها ذلك المنصب. ولكنها عاشت لتعرف أن الطموح كان وهما، كالحب. فقد أثارت مكائدها مع الروس غضب الباب العالي ، وسخط الحكومة اليونانية. وعُدت خائنة من كليهما، مما أدى إلى خراب بيت زوجها؛ ونجت من الموت

بصعوبة؛ وهوت من علياء طموحها إلى الفقر المدقع في إنجلترا. أخفت كل هذا عن ريموند؛ ولم تخبره بأن ما منعها من طلب العون من أبناء بلدها، هو ما تتهم به من تآمر ضد بلدها، ومحاولة إجهاض استقلاله الفتي.

كانت تعلم أنها سبب الدمار الذي لحق بزوجها؛ وقررت أن تتحمل عاقبة ما اقترفت. وتألمت أشد الألم لما آل إليه حاله، من اكتئاب صامت غرق فيه. وأنّبت نفسها على موته؛ وأحاط بها الذنب الذي اقترفت والعقاب الذي عاشته؛ وحاولت جاهدة، ولكن بلا جدوى، أن تُسوغ لنفسها ما حدث، متعللة بسلامة نيتها حين قامت بما قامت به؛ ولكن العالم وهي نفسها، حكموا عليها بنتيجة عملها، لا بنيتها. دعت لروح زوجها؛ وتضرعت إلى القدير أن لا ينسيها جُرمها، وأن يطيل في عمرها لتكفر عنه.

كانت سلواها الوحيدة، في هذا الشقاء، أنها عاشت حيث عاش ريموند، وأنها تنفست الهواء الذي تنفس. حيث لهجت الألسن كلها بذكره، والحديث عن إنجازاته، ومشاريعه، وأبهته. ولا شيء أعز على قلب المرأة من أن ترى مجد وسمو من تحب؛ لذا كانت تستلهم السعادة من ذكره، كلما ألم بها القنوط. كانت تعد هذه المشاعر خطيئة، حين كان زوجها على قيد الحياة، لذا كانت

تكتمها وتتوب عنها. ولكن، حين مات، عاد مدها إلى الارتفاع، حتى فاضت في قلبها، وأسلمت نفسها لتلك المشاعر الجامحة.

لم تكن ترغب أبدا، في أن يراها على حالها هذا، من بعد عزها، في هذا المسكن الذي أنهكه الفقر؛ وهي تحمل اسما يثقل روحها بالذنب. ومع احتجابها عنه، إلا أن مكتبه الإعلامي، مكنها من معرفة كل ما يدور في حياته، من مشاريع، وتحركات، بل وحتى أحاديثه اليومية. وسمحت لنفسها بأن تنعم بترف قراءة أخباره في الجرائد، واقتاتت على أخباره فيها. ولكن لم يخل هذا الترف من غصة. إذ كان اسم برديتا رفيقا لاسمه؛ وكانت أخبار زواجها السعيد أمرا منتشرا. فقد كانا معا دائما؛ ولم تقرأ خبرا مفردا عن ريموند، إلا وكان مصحوبا بصورة لشريكته الوفية في السراء والضراء، برديتا. طفح كل سطر بسعادتهما، ليسقيها سما فوق سم عيشها.

عرفت من إعلان في الجريدة بأمر التصميم المطلوب للمعرض الوطني. فدمجت ذوقها بما رأت من مباني في الشرق، وصاغته بعبقرية في هذا التصميم، ثم أرسلته إلى القصر الرئاسي. سرتها فكرة أن تكون قادرة على أن تهب شيئا نافعا لمن تحب؛ وتطلعت بحماس وفخر إلى إنجاز هذا الصرح، الذي سيخلِّد في بنائه، اسمها مقرونا باسمه. وانتظرت على أحر من الجمر،

عودة رسولها من عنده؛ واصغت بنهم لكل ما نقل عنه، كل كلمة، وكل حركة؛ وشعرت بمنتهى السعادة، لهذا الوصل بينها وبين محبوبها؛ حتى وإن كان غير عارف بالشخص الذي يرسل توجيهاته إليه. وصار مخطط البناء عزيزا عليها. فقد نظر إليه، وأثنى عليه؛ فعملت على تعديل ما طلب، وكانت كل جرة قلم منها كالموسيقى الساحرة، تُرسِّخ في ذهنها فكرة ذلك الهيكل، الذي يخلد مشاعرها تجاهه. كانت غارقة في تلك الأفكار، حين فاجأها صوت ريموند، ذلك الصوت الذي لا ينساه أبدا من سمعه؛ فكبحت اندفاع مشاعرها، واستقبلته بهدوء.

تصارع فيها الكبرياء والحنين إلى أن بلغا تسوية بينهما. فأباحت لنفسا رؤية ريموند وأنها أهل لصداقته، بسبب ما تحملت من شقاء، بما أن القدر قاده إليها. ولكن يجب عليه أن يقبل بشروطها، وألا يمس استقلاليتها، بأن يقدم لها ما لم تطلب، وألا يؤثر العمل بينها، في أمر التصميم، على ذلك بشيء. كانت ذات إرادة استثنائية؛ فكان من السهل عليها أن تقهر أهواء نفسها، أو حاجات جسدها، حين تشاء؛ فلا بأس عندها أن تعاني البرد والجوع والبؤس، على أن تسأل الناس. وللأسف، اقترنت هذه الإرادة الحديدية، التي حبتها بها الطبيعة، بنفس مُرة لا تقبل العيب. ولكن عزيمتها التي

أعانتها على ألم الحرمان، انصدعت من حرارة ما بها من عاطفة؛ فأذعنت، وسمحت لهذا الذي تكن له الاحترام والحب، أن يطَّلع على بؤسها.

استمرت لقاءاتهم، وتدريجيا، كشفت إيفادني لصديقها معظم قصتها، وحقيقة اسمها المقرون بالخيانة في اليونان، وشعورها بالمسؤولية عن موت زوجها. وعندما عرض عليها ريموند أن يطهر سمعتها، ويبين للعالم حقيقة نواياها السليمة، وأنها إنما أرادت مساعدة بلدها اليونان، رفضت، قائلة أنها ترجو الراحة من الشعور بالذنب، عبر هذا العذاب الذي تعيشه. علِما أن الانشغال بعمل ما، سيساعدها على تجنب انهيار قواها العقلية، لذلك سمحت لريموند، بعد شهر من الآن، بأن يجد عملا لها. ولم تكن لتقنع بأي شيء يفرق بينهما؛ خاصة بعدما صارت تراه كل يوم. ولم يتحدث الاثنان عن صلته ببرديتا وأدريان؛ فكان ريموند شهابها المنير، ونجمها الأوحد، الذي يشرق كل يوم في موعده المحدد، وإن غاب عن ناظرها، لم يغب عن قلبها. كان يأتي كل يوم إلى مسكنها الفقير، فيحيله حضوره إلى هيكل مشع بألق سماوي، ويملأه بعبقه، ويشاركها نشوتها فيه. وبنيا جدارا بينهما وبين العالم، عزلهم عن هذيانه وشره، إلا نزرا يسيرا. وكان

غرفتها تلك، ركنا للطهر، والمرح، والبهجة الطاغية، والأمل الذي غرسه في روحها.

وبينما كانت أفكار المجد والشهرة تملأ رأس ريموند، وبينما كان يتطلع إلى إخضاع الطبيعة للإنسان، أفلت قلبه من المراقبة؛ فأطلق ذلك الجزء المغفول عنه، عاصفة كبرى، قهرت إرادته، وقذفت به، وبشهرته، وبمجده، إلى عالم النسيان.

الفصل الثامن

لكن ما كان حال برديتا في أثناء ذلك؟ لم ينفصلا عن بعض في الأشهر الأولى من فترته الرئاسية؛ فكانت طرفا في نقاش كل مشروع وخطة. ولم أر في حياتي شخصا أسعد من أختي العزيزة. فقد كانت عيناها كنجمتين تبرقان حبا؛ وكلّل الأمل والحبور جبينها. ودمعت عيناها لِما سمعت من مديح وتمجيد لسيدها؛ فوهبت كل وجودها له، وملأها الإعجاب بالنفس، لأنها الوحيدة التي فازت ببطل هذا الزمان، فكان لها وحدها لسنين عديدة. ولم تفتر شرارة الحب فيها كما يحدث مع الناس عادة. فبقي حبها له كما كان أول مرة. وخابت السنين الخمس في إخباء ناره. فمعظم الرجال ينزعون رداء سحرهم بعد حين، فلا تعود المرأة ترى فيهم حسنا. ولكن لم يكن ريموند كذلك؛ كان ذا سحر لا ينضب؛ ملِكٌ بسلطة مطلقة؛ فمن يتأمله طوال اليوم، يرى فيه ذات السحر والبهاء، لا ينقص منه شيئا؛ ولا يقدر شيء على نزع ذلك البهاء عنه. وازدادت برديتا جمالا تحت ناظريه؛ ولم أعد أرى فيها ذلك الانطواء الشديد، بل انفتاحا وانطلاقا. وامتزج الذكاء في محياها بلمحة من الحنان، فزادها جمالا.

السعادة في أنقى درجاتها أخت للخير المطلق. وقد يجتمع الألم والسعادة في الإنسان، ولطالما أحب الكُتاب أن يزاوجوا بينهما، لِما في ذلك من حس انساني. إلا أن السعادة الصافية خاصة بالملائكة؛ ومن يبلغها، يبدو كملاك. فقد قيل أن الخوف أبو الدين، لذا تجد أتباع بعض الأديان يضحون بالبشر كقرابين لآلهتهم. ولكن الدين المنبثق من الحب، نبتُه أجمل؛ ففيه يتنفس القلب الحمد والشكر، ونفيض بذلك لخالقنا؛ الذي حبانا بالخيال والشعر، ووهبنا ذكاء العقل وحب فعل الخير لنعمر الأرض. وهذا الدين الذي استوطن قلب برديتا، بخيره وسعادته.

كنا خلال السنوات الخمس التي قضينا في قلعة وينزر، جمعا سعيدا، وكانت فرحتها هي الموضوع المتكرر في حديثها معي. ولنشأتنا المشتركة، ولرابطة الدم، اختارتني على أدريان وآيدرس، لأكون من تشاركه فرحتها العارمة. وكم مشيت معها وقت الأصيل، في طرق الغابة الظليلة الساكنة، مستمعا إلى حديثها بحنان وبهجة. وأسبغ الأمان هدوءا على عاطفتها؛ إذ أمنت على قرب ريموند منها، بالزواج. وزادها مولد ابنتها، الشبيهة بريموند، سعادة على سعادتها، وزادهم قربا برباط الأبوة والأمومة. وتفاخرت أحيانا بأنه اختارها على التاج. وتذكرت أحيانا غضبها وألمها الشديدين

من تردده بالاختيار. ولكن، تلك الذكريات زادت سرورها بما تعيش الآن. وتمسكها بالنعم التي أسبغت عليها. فكانت تنظر إليه من بعيد بجذل، كمن رأى الميناء الذي يقصد، بعد أن شهد عاصفة مهلكة؛ فتسرع إلى حضنه، لتتأكد من أن سعادتها واقع. وكان لهذا الهناء الذي تعيش، أثر طيب على ذكائها وفهمها، فازدادت جمالا في عيني ريموند.

الأمر الوحيد الذي كدر صفوها، كان رؤيتها للنقص في سعادته. فقد عُجنت شخصيته بحب الشهرة، والطموح الجريء. وقد حقق الشهرة في مغامراته في اليونان، بينما ضحى بطموحه في سبيل الحب. وكان عقله راضيا بالأنشطة والأحاديث، التي قضاها مع صحبته في المنازل، والذين كانوا مثله زاخرين بالأدب والعقل. إلا أن حياة الحركة كانت ما يحب؛ فكان يتململ أحيانا من تلك الجلسات الطويلة المضجرة في المنزل. ومنعه كبريائه من الشكوى؛ وكان حب برديتا وقربها، مسكنا لذلك الانزعاج. ولاحظنا جميعا ما كان يعتريه حين كان يشعر بذلك التململ، وكانت برديتا أكثرنا خوفا عليه. فقد كرست حياتها كلها لأجله، كرد جميل على تضحيته بالتاج لأجلها، إلا أنها شعرت أنها لم تكن كافية لإسعاده. وكانت تلك الشائبة الوحيدة في سماء سعادتها الصافية.

كان طريقه إلى السلطة مليئا بالألم لكليهما. مع ذلك، نجح في الوصول إلى مبتغاه، وملأ المنصب الذي خُلق لأجله. كان يعمل بجد، وبلا كلل أو ملل؛ ووجد عقله سبيله في تطويع اختراعات الإنسان لخدمة بني البشر؛ وأزاحت عنه رغبته بفعل الخير كل تعب كان يحسه وهو يبذل جهده في خدمة بني الإنسان. وجنى ما يريد من احترام وإعجاب الناس؛ إلا أن ذلك لن يدوم، كما هي العادة. لم يقلل اعتياده السلطة من استمتاعه بها؛ ولا معرفته بأنها ستنقضي في عز مجدها. وعزم على أن يستخلص كل ما يستطيع من مجد وإنجازات توازي عهودا طويلة من الحكم، خلال هذه السنوات الثلاث من الرئاسة.

كان ريموند اجتماعيا جدا. وكان كل ما يستمتع به الآن سيكون خاليا من المتعة، لو لم يجد من يشاركه فيه. وكانت برديتا له، ذلك الشريك الذي تمنى. فولَّد حبها فيه التعاطف؛ وكانت فطنتها معينا لها على فهمه حتى بدون أن يتكلم؛ ومكنتها رجاحة عقلها من تقديم النصح والإرشاد له. فشعر بقيمتها. إلا أن الشيء الوحيد الذي لم يحب فيها، في سنوات زواجهم الأولى، هو انفلات أعصابها أحيانا. ولكن بعد أن صار الهدوء والطاعة طبعها، زاد حبه واحترامه لها. وزادت السنين رباط حبهم قوة. فلم

يعد للريبة والشك حضور فيهما؛ ولم يعودا للخوف من انقلاب الحال بعد السعد. ورسخت السنين الخمس ما بينهما من حب، لكنها لم تسلبهم رقة الحب البكر. وأعطتهم طفلة؛ إلا أن ذلك لم ينقص من حبه لأختي شيئا. وتبدل حياؤها الشديد وانطوائها، بالانفتاح والإقدام، وبدا ذلك في ملامحها، وأما صوتها فصار فاتنا عذبا. وها قد بلغت الثالثة والعشرين من عمرها، ريعان الأنوثة، وهي قائمة بواجباتها تجاه زوجها وابنتها، بإخلاص وتفان. أما ريموند، فكان أكبر منها بعشر سنين؛ إلا أنه أضاف إلى وسامته، ونبله، وحسن هيئته، لطفا رقيقا، وحسن إصغاء لمن حوله.

كان أول سر بينهما، هو زيارات ريموند لإيفادني. فقد صعق لجمال وجلد تلك اليونانية المسكينة؛ وما أن بدأت تتفتح رقتها تجاهه، حتى سأل نفسه، ما الذي فعلتُهُ لأستحق منها كل هذا الحب؟ ولبعض الوقت، كانت محط اهتمامه وتفكيره؛ فأدركت برديتا بأنه غارق التفكير في أمر يخفى عليها، وكانت مجردة بطبيعتها من الغيرة. إلا أن حب ريموند وعاطفته تجاهها، كانا أهم عندها من الدم في عروقها، فكانت تغار عليه، أشد من غيرة عطيل على ديدمونة .

لم يداخلها شك بإخلاصه؛ بل ظنت أن أمرا ما في القصر

الرئاسي يشغل باله. مع ذلك كانت خائفة ومتألمة. وأخذت تحسب كم من الأيام والأشهر، بل والسنين، سيستغرق حتى يعود إلى سابق صفوه، ويلتفت إليها خالصا كما كان. ولم يسعدها أنه، ولو لبعض الوقت، كان يخفي شيئا عنها. فتبرمت في بعض الأحيان لذلك؛ إلا أنها لم تشك في إخلاصه لها؛ وكان كل خوف أو انزعاج يزول عنها حين يكون معها.

مضت الأيام، وتوقف ريموند، ليتفكر في عواقب ما يفعل. فرأى سبيلين لا ثالث لهما. أن يظل أمر زياراته لإيفادني سرا، أو أن تكتشفه برديتا. وصده حال صديقته المعوز، وبؤسها، عن التخلي عنها. فضرب وداعا للصراحة بينه وبين برديتا، في لقائه الأول بإيفادني. ولكن أنى له أن يخفي عنها ما يعتمل في صدره؟ إلا أن يحتجب عنها خلف جدار سميك، أو يعلو برجا شاهقا لا تراه فيه عينيها. وآلمه ذلك أشد الإيلام. فقد كانت الصراحة والصدق جزءا أصيلا من طبيعة ريموند؛ وبدونهما، سيكون كأي رجل من العوام. فكيف سيفتخر باختياره لها على التاج، إن كان يعجز عن الصدق معها؟ لكن لم يكن من علاج. ولو حشد كل ما فيه من ذكاء، وهمة، وبذلهُ إلى أقصى حد، لما استطاع أن يعود بالزمن، ليمحو ما خط له القدر؛ فما كُتب على صحفة الماضي لن

يغيِّر، ولن يمحو الدمع منه حتى نقطة.

ولكن، ماذا لو وقع الجانب الأسوأ من توقعه، وقاد الريب برديتا إلى الشك فيه؟ ارتعش قلبه، وتعرق جبينه لهذه الفكرة. قد يضحك كثير من الرجال من خوفه هذا؛ لكنه يعرف ردة فعلها؛ ويعلم أن العيش لن يكون سلاما معها. فقرر سريعا، إن علمت الحقيقة، وهذا أسوأ ما يكون، لن ينتظر تلقي توبيخها، أو نظراتها الغاضبة. بل سيتركها، وإنجلترا، وأصحابه، وكل ذكريات صباه، وآمال مستقبله، ويذهب إلى بلد آخر، ليبدأ حياة جديدة هناك. فهدأت نفسه بعد أن قرر ذلك. وجاهد أن يمضي بقدره في هذا الطريق الخدّاع الذي اختار، محاولا أن يبقي سره طي الكتمان.

كانت الثقة بينهما كبيرة إلى درجة أن مراسلاتهما لم تكن تخفى على الآخر. فكانا يفتحان ما يصل من رسائل إلى الآخر، بلا دافع شك. وصلت رسالة، ففتحتها برديتا. فكانت إعلان دمارها. ذهبت قاصدة ريموند، شاحبة اللون مرتعشة الأطراف. كان وحيدا يطالع بعض التظلمات. فدخلت بصمت وجلست على الأريكة المقابلة له، وحدقت فيه بنظرة مكتئبة، وتجسد فيها بؤس لا يضاهيه أوحش زعيق رعب، وأنين ألم.

لم يرفع عينيه عن الأوراق التي بين يديه، في البداية؛ ولكن حين رفعهما، هاله ما رأى من بؤس باد عليها؛ حتى نسي سره وخوفه من أن يكتشف؛ فسأل مذعورا، «ما الأمر يا عزيزتي، ما الذي حدث؟»

«لا شيء»، قالت أولا، «ولكن، هناك أمر ما»، تابعت بتعجل؛ «تخفي عني أسرارا يا ريموند. ما سبب غياباتك في الأيام الماضية، مع من كنت، ما الذي تخفيه عني؟ ولم طردتني من دائرة ثقتك؟ لكن، لست أريد أن أنصب لك فخا بأسئلتي هذه، تكفي إجابتك لسؤال واحد، أتراني حقيرة في نظرك؟»

مدت له الرسالة بيد مرتعشة، وجلست شاحبة ساكنة، تنظر إليه وهو يقرأها. عرف خط يد إيفادني، فاحمر وجهه وهو يقرأها. وبسرعة فهم فحوى الرسالة؛ قضي الأمر، ولا خيار ثالث لاثنين. إما أن يبدد شكوك برديتا، أو أن يهجرها إلى الأبد. قال، «لقد أخطأت يا عزيزتي، وأرجو أن تعذريني. كان خطأ مني أن أختار إخفاء الأمر عنك، ولكني فعلت ذلك خوفا عليك من الألم، وكل يوم يمر كان يصعب علي مفاتحتك في الموضوع. إلى جانب أن الشهامة هي التي حركتني لمساعدة كاتبة هذه السطور».

أخذت برديتا نفسا، ثم قالت؛ «حسنا، تفضل، بين الأمر».

«هذا كل ما في الأمر، الرسالة بينت كل شيء. أنا في وضع لا أحسد عليه. ارتكبت خطأ، ولكنني فعلت ما بوسعي لتلافي الكارثة. وحبي لك طاهر، لم يدنس».

هزت برديتا رأسها، غير مصدقة وصاحت: «لا لا، الأمر ليس كما تقول. تحاول خداعي، ولكني لن أخدع. ضعت من يدي، وضاعت مني نفسي، وحياتي».

«ألا تصدقينني؟» قال ريموند بإباء.

«أود تصدقيك، ولو كلفني ذلك حياتي لبذلتها في سبيل ذلك، حتى أموت على علم بصدق حبك، إلا أن ذلك مستحيل!»

«برديتا»، تابع ريموند، «لا تعلمين فداحة اتهامك هذا. قد تعتقدين أنني فعلت ما فعلت بلا أي إحساس بالذنب والألم. علمت أن الأمر قد يثير شكوكك؛ إلا أنني كنت على يقين بأن كلامي سيكون كافيا لتبديد الشك. وعلى ثقتك بي، بنيت أملي. أتظنين بأنني سأقبل أن يُكذب جوابي على سؤالك؟ وأنني سأقبل

على نفسي أن يُنظر إلي نظرة المتهم المرتاب في أمره؟ لم أنحدر إلى ذلك الدرك؛ ولن أسمح بالطعن بشرفي. أحببتني، وأحببتك. ولكن، كل عاطفة حب إنسانية مآلها الموت. لتكن نهاية حبنا؛ ولكن لا يطعن أحد منهما بشرف الآخر. كنا أحبابا، وأقرابا، إلى الآن؛ فلنتجنب العداء. لا أقبل أن أعيش عيش المشتبه به، لذا إن لم تصدقيني، لنفترق!»

صاحت برديتا، «بالضبط، عرفت أن النهاية ستكون هكذا! أولسنا مفترقين قبل أن تعلن؟ أولا يحول بيننا محيط لا حد ولا قاع له؟»

قام ريموند، وقال بصوت متشنج، ووجه مكفر، وهدوء كالذي يسبق العاصفة: «يسرني أنك تستقبلين قراري بحكمة. لا ريب أنك ستلعبين دور الزوجة المظلومة لتكسبي التعاطف. وقد يخزك ضميرك أحيانا، لأنك ظننت بي ظن السوء، إلا أن مواساة أصدقائك لك، وإشفاق العالم، ورضاك عن نفسك، سيكون بلسما شافيا لذلك؛ ستكونين بخير؛ ولن تريني أبدأ!»

مشى ريموند إلى الباب. وقد غاب عن باله أن كل ما قاله خطأ. ومثل دور البريء حتى صدق نفسه. ألا يذرف الممثلون الدموع

وهم يؤدون أدوارهم؟ هكذا، تملك ريموند إحساس أشد واقعية من الخيال. فتكلم بكبرياء، وكأنه مظلوم فعلا. ونظرت برديتا إليه؛ فرأت نظرة الغضب في عينه؛ ويده على مقبض الباب. وقامت إليه وطوقت عنقه باكية؛ فأخذها من يدها إلى الأريكة وجلس إلى جانبها. وألقت رأسها على كتفه مرتعشة، يتناوب على جسدها برد الخوف، وسخونة البكاء؛ ونظرًا إلى حالها، تكلم ريموند بنبرة لطيفة.

«قضي الأمر. ولكن لن أفارقك على غضب، فأنا أدين لك بالكثير. أدين لك بست سنين من السعادة غير المكدرة. ولكنها ستنتهي الآن، إذ لن أعيش عرضة للشك، وخاضعا لسلطان الغيرة. أحبك جدا. إلا أن الفراق الأبدي، هو السبيل الوحيد، ليعيش كلينا بكرامة. ولن نضطر حينها إلى الانحدار عن أخلاقنا الطيبة. كانت الثقة والإخلاص صلب علاقتنا، وبزوالهما تزول؛ دعينا لا نتعلق بقشور هذه الثمرة العقيمة. ستكون ابنتك معك، وأخيك، وآيدرس، وأدريان».

صاحت بريتا، «وأنت، ستكون معك كاتبة الرسالة».

اشتعل في عيني ريموند غضب عارم. فهذا الاتهام كان عاريا

من الصحة إطلاقا. فقال، «متعي نفسك بهذه الفكرة إن شئت، اتخذيها وسادة، ليرتاح ضميرك عليها. ولكني أقسم بالإله، بأن ما قلت افتراء!»

دهشت برديتا لقسمه المتقد، وتأكيده الجاد. وأجابت بصدق، «لست أرفض تصديقك، يا ريموند؛ على العكس، ستجد مني إيمانا بما تقول. لا أريد منك سوى أن تؤكد لي أن حبك لي لم يُنتهك؛ وستتبدد حالا كل شكوكي، وريبتي، وغيرتي. ونعود إلى حياتنا كما كنا، قلبا واحدا ينبض بالحياة والأمل».

قال ريموند ببرود وأنفة، «سبق وأن أكدت وفائي لك، ولن يجدي التكرار نفعا، بعد أن طرح صدق القول الأول. ولن أزيد شيئا؛ فليس هناك ما أضيفه بعد الذي قلته، وقررت أن تكذبيه. لا يستحق الأمر عناءنا؛ وأعترف أنني منزعج من الرد على اتهامات قاسية لا أساس لها».

حاولت برديتا أن تنظر إلى وجهه، ولكنه أشاحه عنها بغضب. كان سخطه صادقا إلى درجة بددت شكوكها. وعاد وجهها، الذي لم يألف إلا المشاعر المرتبطة بالحب لسنين، وأشرق بالرضا. ولكن لم تكن مراضاة ريموند بالأمر الهين. إذ رفض أن يجلس ليستمع لها. ولكنها لم تتركه؛ فمن أجل حبه الطاهر، كانت على استعداد لبذل

أي شيء، والتوسل بأي شكل، لتهدئة غضبه. وفازت منه بالاستماع؛ وجلس يستمع إليها بأنفة. فبدأت حديثها، بالتأكيد أن ثقتها به لا حد لها؛ وأنه يجب أن يعرف أنها لو كانت لا تثق به، لما بذلت جهدا في محاولة إقناعه بالبقاء. وراحت تعدد سني سعادتهم، مستحضرة مشاهد من المودة والرحمة بينهم؛ وصورت مستقبلهم له، ولم تتمالك دمعها حين ذكرت طفلتهم. حاولت أن تكتم دمعها، إلا أنه أبى أن يكتم فسال على خدها، وانحبس صوتها. لم يستطع ريموند مقاومة ذلك المنظر؛ ولربما شعر بالعار لأنه اتخذ دور الضحية، بينما كان في الحقيقة هو الجلاد. واكتسحه حب عارم لبرديتا؛ فأخذه منظر انحناءة رأسها، ولمعان ضفائرها، وتثني جسدها؛ وتغلغل صوتها وهي تتحدث إلى أعماق روحه؛ فهدأت غضبته سريعا، وأقبل عليها ملاطفا ومواسيا، ومجاهدا أن يقنع نفسه بأنه لم يظلمها.

تزعزع ريموند إثر ما حدث بينه وبين برديتا، كمن خرج توا من جلسة تعذيب، وجلس ينتظر خائرا، الجلسة التالية. فقد كان آثما بحق شرفه، حين أقسم وأصر على الكذب؛ فقد يعدُّ أكثر الرجال كذبهم على نسائهم أمرا عاديا، لكن ليس ريموند. ذلك أنه كذب على برديتا التي وثقت به، وأخلصت له، وأحبته بصدق، والتي زادت ألما على ألمه حين صدقت -بحب- قوله بالبراءة. لم

يخضع عقل ريموند لتجربة مماثلة من قبل، وذلك بسبب الانفعال، فكانت روحه أشبه بالنار التي تذوي وتخفت مما يخنقها، فيبتعد عنها لتعود إلى ألقها من جديد؛ إلا أن مصدر أذاه الآن هو أقرب الناس إلى قلبه، فكيف يقوى على الابتعاد؟ وصارت روحه أرضا لمعركة قادته إلى الجنون، تصارع فيها الصدق والكذب، والحب والكره، والشرف والخسة. كره نفسه بشدة، وكان ساخطا على برديتا، ولم يذكر إيفادني إلا بالشر والنقمة. وعاد سيده القديم – الانفعال– إلى القيادة، بعد سبات طويل في ظلال الحب؛ إذ أيقظه وخز الضمير، وعذاب الروح. ورويدا رويدا، قطبت البغضاء جبينه، وسكن الاكتئاب روحه. وذعر الموظفون التابعون له مما رأوا فيه من غضب، وسخط، واحتقار، بعدما كان مثالا للأخلاق الكريمة. وأدى أعماله مكرها، ومتعجلا، ليعود إلى وحدته، حيث الراحة وبلاء الروح. وأنهك جسده بترويض الخيل الجامحة، والرياضات المتعبة، متخذا من الإرهاق ملاذا من أفكاره السامة.

تحسن حاله ببطء، إلى أن عاد إلى صفاء ذهنه كما كان. فتأمل الحلول لهذه المشكلة. إلا أنه دهش أولا، للفترة التي قضاها في حالة التيه تلك. مر شهر منذ أن أصابته تلك الحالة، ولم ير خلاله إيفادني. فانحلت قيود سطوتها عليه، التي كانت تُعينها بعض

مشاعر قلبه. ولم يعد عبدا، ولا عاشقا لها. لن يراها مجددا. وآب إلى نفسه بالكامل، وعاد أهلا لثقة برديتا.

بيد أن منظر مسكنها البائس عاوده، حين قرر ألا يراها مجددا. ذلك المسكن الذي حواها، بعد أن كانت تحويها القصور الفخمة. وعادته صورتها أول ما عرفها وما كانت عليه من جمال أخاذ؛ وتفكر بحياتها في القسطنطينية، وبالرغد الشرقي الذي أحاط بها؛ وحال حاضرها الموغل في الفقر، وشغلها الوضيع، ووحدتها، وشحوب وجهها. فهاجت الرحمة في صدره؛ وقرر أن يراها مرة أخيرة، وأن يدبر لإعادتها إلى ما كانت عليه من عيش كريم؛ ثم يفارقها بعد ذلك.

تذكر تلافيه لبرديتا في الشهر الفائت، وتهربه منها، بسبب التأنيب الذي تثيره في ضميره. لكنه عاد إلى نفسه الآن، وسيمحو بإخلاصه وصدقه، تلك اللطخة التي ظهرت في صفحة سعادتهم. فأشرق بالبهجة، بينما جالت تلك الأفكار في رأسه، ورسم خطته التي سيتَّبع في سبيل تحقيق ذلك. تذكر أنه وعد برديتا بأن يكون حاضرا هذه الليلة بالذات، (التاسع عشر، من أكتوبر، الذكرى السنوية لانتخابه رئيسا)، ليشهد الحفلة المقامة على شرفه. وأمل أن يكون هذا الحفل، بشيرا للخير والسعادة التي سيعيشانها في السنين القادمة. لكن أولا سيزور إيفادني؛ ولن يطيل البقاء، إذ رأى

أنه مدين لها بتفسير غيابه، وتعويضها عن ذلك الشهر من الغياب؛ ومن ثم يذهب إلى برديتا، وعالم الرئاسة والأعمال، والمنزلة الرفيعة، والتمتع بالسلطة، الذي ذهل عنه شهرا كاملا.

بعد تلك العاصفة، التي سبق ذكرها في الصفحات الفائتة، بين برديتا وريموند، لاحظت برديتا تغيرا كبيرا في سلوك ريموند. إذ توقعت قربا أكثر منه، وعودة إلى إبداء المحبة والود اللذين كانا بهجة عيشها. إلا أن ريموند لم يكن عند توقعها. فكان ينجز أمور يومه منعزلا عنها؛ وكان كثير الخروج من المنزل، لا يعلم إلى أين. كان الألم الناجم من خيبة الأمل هذه أشد على نفسها من وقع السيف. حاولت أن تنزع من ذهنها التفكير بأنه خدعها؛ إلا أن الفكاك من تلك الفكرة كان مستحيلا، كقميص نيسوس ، فعلقت بذهنها، ومزقت بشراسة، أهم ما فيها. فقد كانت، ذات ميل طبيعي للسعادة. وساعدها خيالها النشط، وروحها الرقيقة على ذلك. فضلا عن حبها لريموند، الذي وجدت فيه كل جميل موافق لخيالها، والذي انغرس فيها عميقا، ففجر فيها مشاعر دافئة ضبطت روحها على استقبال السعادة فقط. إلا أن نسيج الحب هذا الذي تقوم عليه حياتها، صار مجرد عادة قتلتها الممارسة اليومية، والتكرار اللانهائي لكلمات الحب، فزال عنه زهو العاطفة

الأصيلة، وصار حبه خرابا، وسعادتها ضرب من الماضي، وحل نقيضها محلها. وما ضاعف سعادتها من قبل، حوَّل أحزانها الآن إلى عذاب؛ فضخَّم خيالها حُزنها، وجعلتها رهافة حسها فريسة أسهل للدغات الكآبة، المشربة بسم الحب. لم تستلم للأسى، بل قاومته، وبذلت جهدا لطرحه عنها، إلا أن المقاومة زادت عمق نصله في روحها. ومرة تلو الأخرى، كرت عليها فكرة حبه لامرأة أخرى. ولكنها أنصفته إذ قالت لنفسها أنه يكن لها مودة؛ لكن، لا يرضي بربح النزر اليسير، في اليانصيب، من كان يأمل ربح الملايين. فصداقة ريموند مؤنسة وغالية؛ ولكن يحتجب خلفها، كنز حبه الذي لا يقبل من حازه قسمته مع شخص آخر. وذلك كنز، إن حازه المرء كاملا، لا يعدله شيء في الدنيا؛ ولكن، إن نقص منه جزء واحد، وحاز معظمه دون بعضه، صار غير ذا قيمة، كالمعدن الرديء المطلي بالذهب. فلنظرة الحب معنى، ولصوته إيقاع، ولابتسامته بريق، لا يدركهم إلا من فك طلسمه وأسكنه في قلبه؛ والحب في جوهره واحد لا يتجزأ، وما ترنموا فيه إلا في وحدته. وقد اتحد قلبا ريموند وبرديتا، كما يتحد الجدولان المنحدران من أعلى الجبل، العابران بين الورود الزاهية، وفوق الحصى اللامعة؛ فإن اختلف أحدهما عن مساره، أو حبسه حابس عن الالتحام بصاحبه، جف صاحبه في مساره قبل أن يصل المصب. وهذا ما

أحسته برديتا، أن التيار الذي يغذي حياتها قد ضعف. ولما رأت أنها لا تطيق إقامة لأملها المهتز، قررت خطة مفاجأة، لتضع لهذا الأسى، وتبدله بالسعادة.

كانت ذكرى تنصيب ريموند رئيسا وشيكة؛ وقد جرت العادة على أن يقام احتفال عظيم بهذه المناسبة. خالطت برديتا مشاعر مختلفة، وحثتها على إضفاء بهاء لا سابق له على الحفل؛ إلا أنها، وحين كانت تستعد لحفل الليلة، تعجبت مما بذلت من جهد ومال، بسخاء، لجعل هذا الحفل مبهرا للجميع، مع أنه اليوم الذي ابتدأ فيه عذابها الذي تعيشه الآن. فالويل والثبور، قالت لنفسها، والدمع والعويل، لليوم الذي جعل أمل ريموند في أمر غير الحب، والذي جعله يتمنى غير قلبها؛ والفرح، كل الفرح، لتلك اللحظة التي يعود فيها إلي. والله يعلم أني أصدق وعوده؛ إلا أنني لن أتوانى عن طلب ما نويت أن أسترد لنفسي. ولن أنتظر مرور عامين آخرين، يضيف كل يوم فيهما جحرا إلى جدار غربتنا عن بعضنا البعض. لا يا ريموندي الحبيب، يا من لا شريك لي فيك! فهذه الليلة الباهرة، وهذا الحفل العظيم، وهذا القصر الفاخر، وفتاتك الباكية، المتزينة بأبهى صورة، اجتمعت كلها لتشهد تنازلك عن الرئاسة. وقد تنازلت مرة عن حلمك بالتاج، لأجلي. وكان ذاك

في أيام الحب الأولى، حين كنت حبلى بالأمل فقط، لا الوعود الصادقة. والآن، بعد أن ذقت العيش معي، وإخلاص قلبي، وحبي الطاهر، وخضوعي المطلق لك، وجب عليك الاختيار بين ذلك والرئاسة. هذه ليلتك الأخيرة، أيها النبيل الأبي. أسبغت عليها برديتا كل بهاء وبهرجة يحبه قلبك؛ ولكنك ستخرج من هذا السكن الفاخر، وهذا المحيط الرئاسي، ومن علياء السلطة؛ لتحل غدا في سكنك الريفي؛ ولن أقبل، ولو أُعطيتُ الخلود، البقاء هنا لأسبوع آخر، مشحون بالأسى كالذي سبقه.

قررت، مصممة على هذه الخطة، أن تطلب إليه تنفيذها وتصر على قبوله. أضاء قلبها، لمجرد التفكير بالأمر. وتورد خدها، لما تتوقع من نتيجة، ولمعت عيناها بأمل الفوز به. بعد أن علقت مصيرها، واثقة بالفوز، برمية نرد؛ قامت وهي التي كما وصفتُ، خليقة بأن تكون ملكة تحكم أمما، مكللة بالمجد، وبسمو يفوق البشر، قامت لتدير بأصابعها عجلة القدر. لم تبد بهذا البهاء من قبل.

أما نحن، أبناء الريف المتواضعون، فكنا ننوي حضور الحفل، إلا أن برديتا طلبت إلينا ألا نحضر، وأن نبقى في وينزر؛ ذلك أنها وريموند -بدون أن تشرح لنا لماذا- سيكونان بيننا صباح الغد، للعيش معنا، حيث وجدت سعادتها من قبل. في وقت لاحق من

ذلك المساء، دخلتْ القاعة المخصصة للاحتفال. وقد خرج ريموند من القصر في الليلة الفائتة، ووعد أن يكون موجودا في الحفل، إلا أنه لم يعد إلى الآن. بيد أن الشك لم يداخلها في حضوره، وإن تأخر؛ ومهما بدا الصدع كبيرا بينهما في هذه الأزمة كانت واثقة من أنها سترأبه إلى الأبد.

كان التاريخ كما ذكرت سابقا، التاسع عشر من أكتوبر؛ وقد حل الخريف الموحش باكرا. صرصرت الرياح، وجردت الأشجار نصف العارية من بقية آثار ترف الصيف، وكان المحيط الممتلئ بالنباتات المحتضرة، نقيضا للبهجة والأمل. كان ريموند سعيدا بالقرار الذي اتخذه؛ ولكن مع أفول شمس النهار، أفلت روحه. كان عليه أن يزور إيفادني أولا، ثم يخف من هناك إلى الحفل. وبينما كان يمشي في الشوارع البائسة لحي تلك اليونانية التعيسة، انقبض قلبه مما كان مقدما عليه. كيف طاوعته نفسه أن يقبل بقاءها في مثل هذا الفقر المدقع، ثم وبعد أن عاش معها حلما ساحرا، تركها نهبا للوحدة، والرعب، والقلق، ومرارة خيبة الأمل فيه. كيف أمضت شهرها، وكيف احتملت غيابه وهجره؟ خفت الضوء مع دخوله في الشوارع القريبة من مسكنها، وحين انفتح الباب أمامه، التفت السلالم أمامه في ظلام دامس. تلمس طريقه إلى

الأعلى، ودخل الغرفة ليجد إيفادني ممددة على سريرها المرزي، لا تنطق، وما فيها إلا بقية روح. فنادى على ساكني المبنى، إلا أنه لم يجد عندهم جوابا على ما أصابها. ولكنه كان عالما علم اليقين بما حل بها، فقد كان الأمر واضحا، وضوح أنياب الذعر التي انغرست فيه. فحين أيقنت هجره لها، فقدت العزم على المضي في عملها؛ وألجمها كبرياؤها من أن ترجوه اللقاء والمساعدة، فرحبت بالجوع، طريقها إلى الموت، والذي سكنت بين جنباته طاهرة من دنس الذل. ولم يعبأ إنسان بزيارتها، مع خوار قواها.

أي مجرم يرقى إلى جرمه هذا، إن ماتت؟ أي شيطان أشد فجرا منه، وأي روح أحق منه بالجحيم! ولكنه لم يركن لتأنيبه نفسه. فطلب الإسعاف؛ ومرت الساعات، التي أبطأها القلق، فكانت كالسنين؛ وبعد أن انبلج الصبح عن ليل الخريف الطويل، استقرت حالتها. ثم أمر بنقلها إلى مسكن أفضل، وظل يحفها، ليتأكد من سلامتها.

وفي غمرة قلقه وذعره أثناء إنعاش ايفادني، تذكر أمر الحفل، الذي تقيمه برديتا على شرفه؛ شرفه! بينما كان الموت والبؤس ينسجان العار باسمه. أي شرف لذلك الذي يستحق حبل المشنقة، أي سخرية مريرة هذه! ولأن برديتا كانت بانتظاره، على أيِّ حال، كتب بعض الجمل غير المتماسكة على قطعة من ورق، يذكر فيها

أنه بخير، وطلب من صاحبة المنزل أن توصلها إلى يد زوجة الرئيس في القصر. فسألت، المرأة التي لم تكن تعرفه، بسخرية، كيف لها أن تدخل القصر، لتقابل زوجة الرئيس، خاصة في ليلة احتفالية كهذه؟ فأعطاها ريموند خاتمه، ليضمن احترام العاملين لما تقول. وهكذا، وبينما كانت برديتا تقوم على ضيوفها، وتنتظر بحرقة وصول زوجها، بلغها خاتمه، وقيل لها بأن امرأة فقيرة تحمل رسالة لها.

سرت همسات النميمة بين الخدم، ولم تفهم سبب ذلك، إذ لم يساورها شك بأي أمر. خشيت أن يكون وقع من على ظهر حصانه، أو ما شابه ذلك من حوادث؛ إلى أن أجابت المرأة على أسألتها، لتوقظ مخاوفها. وبخبث -مثاره الطبع لا القصد- غيبت المرأة في حديثها أمر سوء حالة إيفادني الصحية؛ بينما ذكرت بكثير من الكلام أمر زيارات ريموند المتكررة، فصارت خيانة ريموند يقينا في عين برديتا، بعدما كانت شكوكا فقط. وأسوأ من كل هذا، إهانة غيابه غير المسوَّغ عن الحفل، إلا من رسالته التي حملها هذه المرأة، التي قصت عليها فعله المشين. ونظرت مرة أخرى إلى خاتمه الذي أهدته إياه، وإلى ياقوته الحمراء الصغيرة التي بدت كقلب أحمر. ثم نظرت إلى خط يده الذي لم تستطع إنكاره، وقرأت كلماتها من جديد؛ «أوصيك، بل أرجوك، ألا تسمحي

للضيوف بالتساؤل عن غيابي»، بينما طفقت تلك الحيزبون تهذر، مالئة أذنها بمزيج من الصدق والكذب، حتى صرفتها برديتا أخيرا.

عادت المسكينة إلى الحفل الذي لم يفتقدها. وانسلت إلى ركن خفي، واستندت على أحد الأعمدة لتستجمع نفسها. وظلت هناك مشلولة الأركان. نظرت إلى أزهار في مزهرية بقربها، كانت رتبتها ذلك الصباح، واختارتها لندرتها وجمالها؛ وحتى في صدمتها لم يخف جمالها عن عينها، ولا ألوانها الزاهية. «يا طيات روح الجمال السامي؛ لا تحزني، ولا تندبي؛ ولا يحزنك اليأس القابض لقلبي! لم أخلق زهرة مثلك، هانئة العيش، ولا أبالي بحزن!»

توقفت، ثم أكملت في سرها. «إلى الضيوف؛ فلا يجب أن يعرف أحد منهم ما يدور بيني وبينه. سأطيعه؛ إذ يجب ألا يلاحظوا شيئا. يجب ألا يلاحظوا التناقض الذي أنا فيه، سأبدو حية بينهم، بينما أنا ميتة». وبعد شديد جهد، نجحت في العودة إلى ضيوفها.

انصب جهدها على حل الصراع الذي اشتعل داخلها. إذ كان عليها أن تظهر بمظهر المضيفة اللبقة، المشرقة بابتسامة تعكس فرحها ونعيمها. بينما، تتلهف روحها إلى الوحدة؛ ولكتم سرها لو أنها استطاعت استبدال ضيوفها وقاعتها المكتظة، بأعماق غابة

مظلمة، أو أرض جرداء يخيم الليل عليها. إلا أنها تحولت إلى البهجة المفرطة. فلم تستطع توسطا، أو أن تبقى، كعادتها هادئة ساكنة. ولاحظ الجميع تهلل روحها؛ إذ بدت حركاتها رشيقة، فتحلَّق الضيوف حولها بإعجاب، على الرغم من بعض الحدة في ضحكتها ومزاحها، والتي قد تكون وشت بسرها للناظر الفطن. استمرت كذلك، إذ شعرت أنها لو توقفت عن هذا الفرح المبالغ به، ستفضح مشاعر بؤسها، ويعلو عويل آمالها المحطمة، وأن من يُثني على طربها وفكاهتها الآن، سيُولّي فزعا حين يرى يأسها. كان عزاؤها الوحيد، في لحظات عذابها تلك، حركة عقارب الساعة، وانقضاء الدقائق التي قربت وحدتها.

أخيرا، بدأت أعداد الضيوف بالتناقص. وكانت، تسخر من رغبتها في رحيلهم الباكر، بأن تعاتبهم على ذلك، وترجوهم أن يطيلوا البقاء. وواحدا تلو الآخر تركوها، إلى أن صافحت آخر ضيوفها. «يدك باردة ومتعرقة، لابد وأنك منهكة، أرجو أن تتعجلي الراحة». قالت صديقتها. ردت برديتا بابتسامة فاترة. غادرها ضيوفها، وأكد ابتعاد عرباتهم رحيلهم. ثم ركضت مسرعة، وكأن عدوا يطاردها، أو أن أجنحة ركبت في أقدامها، إلى غرفتها، وصرفت جميع الخدم من حولها، أغلقت الباب على نفسها، ثم

ألقت بنفسها على الأرض، وعضت شفتها، لتكتم نواحها، حتى سال منها الدم، وظلت لوقت طويل، فريسة لنسر اليأس، عاجزة عن التفكير، وفي نفس الوقت ضج قلبها بآلاف الأفكار، أفكار سامة مرعبة ومثيرة للسخط، تدافعت وتعاقبت تنصب عليها، وكأنها تريد قتل بعضها البعض، دافعة إياها إلى الجنون.

نهضت أخيرا، أكثر تماسكا، لا أقل بؤسا. وقفت أمام مرآة كبيرة، ناظرة إلى صورتها؛ إلى ثوبها الرقيق الجميل، وجواهرها التي رصعت شعرها، ولفّت معصمها وجيدها، وقدمها المنتعلة للحرير، وضفائرها الصقيلة، كل هذا غطى عليه حاجباها الكسيفان، كالعاصفة باهرة المنظر، الحاملة للهلاك في قلبها. وجال بخاطرها، «ما أنا إلا وعاء طافح باليأس. وداعا يا برديتا! وداعا يا أيتها الفتاة المسكينة! لن تري هكذا مجددا؛ فلم يعد النعيم والرغد لك؛ ولك أن تحسدي المشرد والسائل، في مثل فقرك هذا، إذ حالك أسوأ من حاله! فعيشي صحراء مجدبة، لا متناهية، لا تنبت فاكهة ولا زهرا؛ هناك يا برديتا تعيشين، مقيدة إلى صخرة صماء، ناظرة إلى الكابوس في الأفق.

شرَّعت نافذتها المطلة على حديقة القصر. وتصارع أمامها النور والظلام، وتقلم الأفق الشرقي بأشعة وردية وذهبية. لمع

نجم وحيد مرتعش في ذلك الأفق المشتعل. وهب نسيم الصباح المنعش من فوق النباتات الندية، داخلا غرفتها السخينة. وحدثت نفسها، «تمضي الحياة، وكل شيء صائر إلى الزوال! فحين تمر الظهيرة، ويجر اليوم نوره غاطسا خلف الغرب، تشرق نار السماء من الشرق، سائرة في طريقها المعتاد، متسلقة أو منحدرة تل السماء. حين ينقضي اليوم، ويرخي الليل سدوله على الغرب؛ ليعود ويفتح النهار عينيه، وتستيقظ الطيور، والزهور، والنسائم؛ وتعرج الشمس إلى وسط قبة السماء. الكل ماض، من تغير إلى فناء، ما عدا البؤس المتفجر في قلبي.

نعم، التغير سنة كل شيء؛ فلم العجب إن كان حب سيدي لي قد تغير؟ نحسب أن النجوم ثابتة لا تحيد، مع أنها تسبح في الفضاء الفسيح، ولو نظرت إلى السماء بعد ساعة لما كانت ذات السماء. حتى القمر السخيف، والكواكب المتلونة تتقلب كل يوم، في رقصة غريبة. وتهرم الطبيعة، فترعش أطرافها البالية: لا خير في الحياة! أي عجب إذا، من خسوف وموت النور من حياتك، يا برديتا!»

الفصل التاسع

هكذا كان حال أختي المسكينة، مبعثرة الأفكار، بعد أن أيقنت بخيانة ريموند. وتواطأت فضائلها وعيوبها لتزيد من سوء حالتها. وحتى ودّها لي، وأدريان وآيدرس، كانا عرضة لذلك الزلزال، فهو متغلغل بعاطفتها ككل؛ بل حتى عاطفة الأمومة فيها، والتي استمدت حرارتها من النظر إلى ملامح ريموند في وجه صغيرتها. كانت انطوائية ومتجهمة في طفولتها، إلا أن الحب رقق طبعها، وتفتح قلبها وعقلها بزواجها من ريموند؛ ولكن، بعد خيانته، عادت إلى حد ما، إلى طبعها الأول. وأفاق كبرياؤها الغريزي، الذي كان نائما في أحضان حلم الهناء، ليبث في قلبها سمومه، وزاد من إهانتها مفعول ذلك السم؛ فقد كانت مكانتها العالية من قبل، بسبب حب ريموند لها، فأي قيمة لها الآن، بعد أن طرحها من قلبه؟ كانت تزهى بفوزها بحبه، وقربه؛ والآن وقد فازت به أخرى، انطفأت روحها، كما يطفئ الماء النار.

بقينا، نحن أهل الريف، جاهلين بما حدث لفترة طويلة. فبعد انتهاء الحفل، أرسلت في طلب ابنتها، ومن ثم انقطعت عنا. ولاحظ أدريان تغيرا ما، في زيارة لهم، إلا أنه لم يستطع تخمين

الأمر. واستمرا في الظهور سوية في العلن، والعيش تحت سقف واحد. كان ريموند لبقا كعادته، إلا من بعض فلتات سوء الخلق، التي أجفلت صديقه المحترم؛ لم يكن وجه مكفهرا، إلا أن شفتيه كانتا مزمومتين، وصوته أجشا. أما برديتا، فقد كانت لطيفة وطيعة لسيدها، إلا أن الصمت خيم عليها، وبدا عليها حزن عميق. ونحل جسدها، وشحب لونها، وكثيرا ما كانت تدمع عينيها. وكانت تنظر إلى ريموند أحيانا، نظرة وكأنها تقول: ليكن ما تريد!. ونظرة أخرى، كأنها تقول: سأبذل ما أستطيع لإسعادك. إلا أن أدريان لم يستطع أن يجزم بشيء. كانت كلارا صحبتها الدائمة، والتي بدت مرتاحة في صحبتها أكثر من غيرها، حين كانت تركن إلى زاوية نائية، ضامة يد ابنتها، يلفها الصمت. لم تفلح محاولات أدريان بأن يعرف ما الأمر؛ فرجاهما أن يزورا وينزر، ووعدا أن يفعلا في الشهر القادم.

كانت زيارتهم إبان شهر مايو، وفيه تزينت الغابة بخضرة رائعة، وحفت طرقها بآلاف الزهور. أُبلغنا بزيارتهم قبل يوم؛ وفي الصباح الباكر لليوم التالي، وصلت برديتا وابنتها. على أن يتبعهم ريموند غير ذي بعيد. وبحسب ما أنبأني به أدريان، توقعت أن أرى برديتا حزينة؛ إلا أن العكس ما كان، إذ بدت كأسعد ما يكون. صحيح

أنها نحلت، وأن عينيها غارت في محاجرها، بعض الشيء، وذبل خداها، اللذان زينها بريق السعادة. كانت سعيدة لرؤيتنا، فداعبت أطفالنا، وأثنت على صحتهم؛ وكذلك فرحت كلارا لرؤية صديقها ألفرد من جديد؛ وانطلقت ألعاب الأطفال، التي شاركت فيها برديتا. وانتقلت بهجتها إلينا، وبدا أن جمعا أسعد من هذا لم يجتمع من قبل. حين جلسنا في شرفة القلعة، قالت كلارا: «هذا أفضل من لندن الكئيبة يا أمي، حيث تبكين، ولا تضحكين أبدا». وردت برديتا، «اصمتي يا صغيرتي، وتذكري أن من يأتي على ذكر لندن سيحبس لساعة في الغرفة».

لم يطل الوقت حتى انضم ريموند إلينا. ولكنه لم ينخرط في المرح مع البقية، بل دخل مباشرة في حديث معي ومع أدريان، وتدريجيا، ابتعدنا عن البقية، إلى أن بقيت آيدرس وبرديتا فقط مع الأطفال. تكلم ريموند عن مبانيه الجديدة، و بعض خططه للتأسيس لتعليم أفضل للفقراء؛ وكالعادة اشتعل النقاش بينه وبين أدريان، ومر الوقت بدون أن نلاحظ.

اجتمعنا من جديد، قبيل المساء، وأصرت برديتا على قضاء ساعة مع الموسيقى. قالت أنها تريد أن تسمعنا بعضا من إنجازها الجديد؛ فمنذ أن سكنت لندن، خصصت جزءا من يومها لتعلم

الموسيقى، والغناء، فتحسن صوتها الجميل، مع أنه لم يكن جهوريا. ولم تسمح لنا باختيار أي أغان إلا ما كان مرحا؛ فكان اختيارنا أوبرات موزارت، لننتخب منها أجملها للروح. وما يميز موسيقى موزارت عن غيره، بالإضافة إلى مزاياها الأخرى، هو تفردها بأنها عاطفة خالصة، خارجة من القلب، ومعها تعيش ما يريد لك موزارت، من غضب، أو فرح، أو أسى. ولبعض من الوقت، كانت الفكاهة عنوان الجلسة؛ ولكن، بعد حين تركت برديتا البيانو، وبدأ ريموند بغناء قطعة «صه يا قلبي الحزين» من أوبرا دون جيوفاني، والتي طوعها بجودة، فخرجت من حنجرته رخيمة، وقلَّبت في قلبها ذكريات الماضي؛ فقد كانت تسمع منه ذات الصوت، وذات الأغنية، مكللة بالحب لها، والآن لم يعد الأمر كما كان؛ واخترقها نغم صوته، برمح من الأسى والندم. ثم تبعته آيدرس، التي كانت تعزف على القيثارة، وغنت قطعة «يا حب أعن قلبي» المحزنة من أوبرا زواج فيغارو، والتي ترثي فيه نبيلة حالها، بعد أن هجرها حبيبها الخائن. وزاد صوت آيدرس وعذوبتها، وحسن عزفها على آلتها، تلك الأغنية رهافة. وخلال غناء برديتا لتوسلات تلك النبيلة المثيرة للشفقة، لفت انتباهنا نشجة مكبوتة من برديتا، فتوقفت الموسيقى. عادت برديتا إلى نفسها، وجرت خارج القاعة، فتبعتها. أرادت بداية أن تتحاشاني، إلا أنها أذعنت

أخيرا لتكرار سؤالي، فعانقتني منتحبة وقالت: «مرة أخرى أبث أحزاني على صدرك الحاني يا أخي. فرضتُ على نفسي ألا أبوح بشيء، ولم أنطق بكلمة لأشهر. أخطأت في بكائي الآن، وخطئي أكبر، إن نطقت بما يجيش في صدري. لن أبوح بسري! يكفيك أن تعرف أنني أعيش في بؤس. يكفيك أن تعرف صورة حياتي ستارة كاذبة، وأنني أحيا في كنف الظلمة والكآبة، فالحزن أخي، والنواح رفيقي الأبدي!»

حاولت أن أسليها، ولم أسألها عن سبب ما فيها، ولكني لاطفتها، وأكدت لها أني بجانبها. قالت، «يا لكلمات المحبة، أسمعها، وكأني أسمع لحنا قديما كانت أذني تهواه. ولكن لا جدوى منها في تسكين آلام قلبي. أنى لك يا ليونيل العزيز، أن تعرف ما قاسيت في الأشهر الطويل الماضية. بلغت مبلغ من قرأت عنهم من بائسي الأزمنة الغابرة، من تسربلوا بالأسمال، وحثوا الرمل فوق رؤوسهم، وخبزوا خبزهم بطحين مزيجه الرماد، وسكنوا فوق رؤوس الجبال، مُقرِّعين السماء والأرض على ما أصابهم من بلاء. تلك قمة الحزن. يتفنن المرء كل يوم، في مهر جديد، دافعا إياه للأسى، خاطبا قربه الأبدي. واحسراتاه! فذلك مصيري، أن أكتم إلى الأبد، هذا البؤس الذي يأكلني. وأن

أنسج ثوبا بهيا من الكذب، لأخفي حزني عن أعين الناس، وأبسط جبيني، وألبس شفتي ابتسامات كاذبة. حتى في وحدتي، لا أجرؤ على التفكير في مصابي، خشية أن يمسني الجنون».

لم يكن من المناسب لها أن تعود إلى الحلقة، بدمعها وعبراتها. لذا أقنعتها بأن نركب ونتجول في الحديقة؛ وخلال تجوالنا، حثثتها على البوح لي بأسباب تعاستها، راجيا أن يكون في ذلك راحة لروحها المثقلة، وإن كان هناك من حل، سأعينها على بلوغه.

بعد مرور عدة أسابيع منذ ليلة الاحتفال بالتنصيب، لم تعد برديتا قادرة على السيطرة على أفكارها ومشاعرها. ووبخت نفسها أحيانا على فعلها هذا، مع ما قد يعده الكثيرين أمرا من نسج الخيال؛ إلا أن جموح المشاعر أمر لا علاقة له بالحكمة؛ ولجهلها بالدوافع الحقيقية وراء أفعال ريموند، بدت الأمور في عينها أسوأ مما كانت عليه. كان نادر الحضور في القصر؛ وكان في حضوره، حريصا على الانشغال بأمور الدولة، ليبقى بعيدا عن برديتا. ونادرا ما تحدثا مع بعضهما، متحاشين فتح باب الحديث عن الأمر الذي يخشى كل منهم التكلم فيه. ولكن، فجأة، تغير سلوك ريموند؛ وبدا أنه يتحين الفرص ليظهر اللطف والحميمة تجاه أختي. وعاد نهر الحب للتدفق من جديد؛ فلم ينس كيف كان عاشقا لها، وكيف كانت قِبلته

التي أودع فيه كل محبته. كان مترددا أول الأمر، إذ شعر بالخجل مما اقترف، إلا أنه أقدم أخيرا راغبا بصدق أن يعيد ما بينهما من ود. إلا أن برديتا، وإن كانت أجلت العمل بخطتها السابقة، وضعت خطة أخرى ونوت أن تشرع في تنفذيها الآن. فقبلت عرابين الحب هذه، بأدب، ولم تتحاش صحبة ريموند؛ إنما عملت على وضع حاجز بينها وبينه، مانعة به أي قرب شديد، أو نقاش مزعج؛ وحال كبرياء ريموند، وخجله من أن يحاول كسر ذلك الحاجز. ولكن بدأت تظهر عليه علامات الغضب أخيرا، وأدركت برديتا أنها لا تسطيع المضي في أسلوبها هذا. وجب عليها أن تشرح نفسها له، إلا أنها افتقدت الجرأة على الحديث، لذا كتبت:

«أتوسل إليك أن تقرأ هذه الرسالة بترو. فليس فيها أي عتاب. فأي شيء يستحق أن أعاتبك عليه؟

اسمح لي أن أبين مشاعري بعض الشيء؛ فبدون ذلك، سنتلمس طريقنا في العتمة؛ ونتوه عن الذي قد يصل بأحدنا على الأقل، إلى عيش أهدى في الحياة، بدلا مما نحن عليه في الأسابيع الفائتة.

أحببتك، ولا أزال أحبك، ولم يخالط حبي لك غضب أو احتقار؛ بل ثبت مني ثبوتا عظيما، فلا يقدر على إبداله شيء. إلا

أن عاطفتي تجاهك قد جرحت جرحا لا شفاء منه؛ وأرجوك لا تحاول مداواة هذا الجرح، إن كنت تنوي المحاولة. المغفرة! والسماح! تافهة هذه الكلمات! وقد أغفر ما تحملت من ألم؛ ولكن أثر السياط لن يمحى.

قد تألف مشاعر الحب عادية التغير ولا تجزع. ولكنني كنت أظنك تعرف قلبي، وبإخلاصه لك وحدك. لم أحب أحدا سواك. كنت تجسيدا لأغلى الأحلام على قلبي. يلهج الرجال بمدحك، ومآلك النجاح والرفعة دائما. ملأ حبك حياتي بنور خلاب؛ فلم أعد أطأ الأرض، الأرض الرازحة تحت تعاقب السفاسف والتوافه من الحوادث، تولد على ظهرها ثم تبلى وتموت، وهكذا. بل عشت في هيكل بناؤه الهيام والنشوة، ككائن سماوي، لا يرى فوقه إلا سناك وبهاؤك.

وقفت جنبي كالشباب

فصار الواقع حلما

حين نفخت في كل مألوف

نفحة من نسيم الفجر

والآن تلاشى ذلك العبق من حياتي، ولا صبح يعقب هذا الليل؛ فلا شروق لشمس الحب الغاربة. لم أدر ما العالم، ووجوده، حين كنت فانية فيك. لم أر غيرك رجلا، ولم أرك رجلا كالرجال، بل أسمى من ذلك؛ ممجدا في قلبي، ومالكه؛ غاية أملي، ونصفي الأغلى علي.

آه يا ريموند، ألم نكن سعداء؟ ألم يكن حبنا فوق العادة، وأبهج زوج أشرقت عليه الشمس؟ وكذلك لا مثيل لما يعتصرني من ألم الخيانة. ألم انفتاق الواحد الذي لا أجزاء له؛ وتمزيقك اللامبالي، لثوب الجلال الذي كنت تلبس في عيني. ولا تحلم بأن تصلح ما فسد. أوليس الحب خالدا؟ أولم أكن أرى لمحاته السماوية في نفسي، لأنه اختار قلبي هيكلا لحبك؟ لطالما حدقت فيك نائما، وفاضت عيناي بالدمع، لمجرد التفكير بأن أغلى ما أملك، مجتمع في هذه الجسد الفاني، الماثل أمامي. ولكن سرعان ما يبدد خوف فقدك، حين أذكر أن ما بيننا خالد بلا شك.

أما الآن، فأتوق إلى الموت. ولكم سيسرني إغماض عيني، بدلا من الحياة. ولكنني أخشاه أيضا؛ فلا سعادة لي بأي وجود مرتبط بذكراك، وذكرى قصور حبك. تلك الذكرى التي يبكيها قلبي النديب، في كل نبضة قائلا:

يا حبي الدفين، لا بعث لك

و يا سعد قلبي، لا عود لك!

إلا أنني لا أزال على حبك. ولن أنقطع عن السعي في خدمتك. تحاشيا لحديث الناس، ولأجل ابنتي، ابنتنا، سأكون معك في السراء والضراء، يا ريموند. وإن كان الأمر كذلك، فلن نكون أحبابا بعد الآن. ولا صديق لي، إلا البؤس والحزن. أما السرور، فسيكون لي في رؤيتك كل يوم، وسماع مديح وثناء العامة عليك، ورعايتك الأبوية لابنتنا، وسماع صوتك، وقربك، مع أنك لم تعد لي.

وإن كنت ترجو قطع الرباط بيننا، فقل، وأنا على استعداد لتحمل لوم الناس.

ولكن، كما ذكرت، لم يبق لي من مسرة إلا أن أعيش معك تحت سقف واحد. وحين تنقضي زهرة شبابي، ويكسر العمر أسنان هذا الألم الذي ينهشني، قد يحل ود العِشرة، محل الحب الميت. ولست أدري إن كنت أقوى على ذلك؟ أتقدر روحي، العالقة بهذا الجسد الفاني، أن تحمل نيران عاطفتها، حتى وإن يبس جلدي؟ إن استطاعت، ففي ذلك الوقت، حين تفقد عيني

بريقها، ويكتسي وجهي بالتجاعيد، وأدنو من حافة القبر، قد أكون أقرب صديقة لك».

«برديتا.»

كان رد ريموند موجزا. فبأي شيء سيرد على شكواها، فقد طوقتها الغيرة، وصارت رافضة لأي حل. فكتب، «على مرارة رسالتك، ولا وصف أجد لها إلا المرارة، إلا أنك أغلى شخص عندي، وسعادتك مقدمة عندي على كل شيء. افعلي ما يحلو لك، وإن كان رضاك وسعادتك في شيء ما، فأرجو ألا تجعليني عقبة في وجه ذلك. أرى أن أسلوب عيشك الذي تنوين اتباعه في رسالتك سيستمر لوقت طويل. أنت سيدة نفسك، وأرجو أن تسمحي لي بأن أكون معينا لك على ما يسعدك».

قالت برديتا، «لم يخب تنبأ ريموند. فسيطول حالنا هذا، للأسف. إلا أنني لن أكون أول من يطلب الفراق. فهو يرى أنه جرحني جرحا مميتا؛ ولكن، لست أرى أي شفاء في لطفه، الذي يحاول أن يبذل لي، ولا أظنه قادرا، مهما فعل، أن يغير ذلك. فلست أرضى بحبه المنتهك، كما لن ترضى كليوباترا أن ترتدي ثوبا مشقوقا، وإن كان مزينا بأحلى اللآلئ».

أعترفُ أنني لم أر الأمر بمثل السوء الذي تصورته برديتا. ولطالما ظننت أن جرحها قابل للالتئام، ولو ظلوا سوية، لحدث ذلك. فحاولت مرات عديدة أن أطيب نفسها؛ إلا أن اليأس أصابني بعدما كان الرفض ردها في كل مرة، فلم أعد أرى أية جدوى في محاولاتي تلك. كانت تستمع إلي بضجر، وتجيبني بشيء من الحدة: «أتظن أن أيا من حججك هذه جديدة علي؟ أو أنني، مدفوعة بألمي، لم أفكر بذلك آلاف المرات؟ لست تفهم حب المرأة يا ليونيل. في أيام رضاي، دائما ما أذكر نفسي، بقلب شاكر، ونفس منتشية، بكل ما ضحى ريموند به من أجلي. كنت فتاة جاهلة، لا تُعاشر، ذات طباع وحشية، فرفعني إلى ما أنا عليه. وكل ما أنا فيه من رغد عيش، إنما بفضله. وهبني نبل المكانة وشهرة الاسم؛ وكل احترام لي إنما هو من احترام الناس له. كل ذلك، مرفوقا بحبه الذي لم يمت لي، أثار حنيني إليه، كما نحنّ إلى من وهبنا الحياة. بينما كان عطائي له الحب فقط. كرست نفسي، بكل عيوبي له، وآليت على نفسي أن أحسنها، عليّ أن أكون جديرة به. فلطفت مزاجي الحاد، وروضت سوء طبعي، وأخرجت نفسي من انطوائها، وسعيت إلى الوصول إلى أمثل ما أستطيع، راجية سعادته في ذلك. ولا فضل لي فيه. بل كل الفضل له. كل تعبي، وإخلاصي، وتضحياتي كانت له؛ ولو شاء أن أتسلق إلى قمة الألب

المعجزة، لفعلت، رجاء رضاه. وكنت على استعداد لأن أترككم جميعا، على معزتكم عندي، لأعيش معه وحده. لم أكن أستطيع خيارا آخر؛ فلو كان للمرء روحان كما يقول، فهو روحي الفضلى، أما أنا فالروح الطائعة أبدا. لم أطلب منه لقاء ذلك إلا أمرا واحدا، الوفاء. ولاستحقاقي لذلك، نلته منه. هل يظن أنه لكوني ابنة الجبال الفقيرة، وضيعة النسب، سيكفيني منه أن يجازيني بالثراء والنبل؟ ليأخذ ماله واسمه معه، فلا حاجة لي بهما بدون حبه. ففضلهم الوحيد في نظري هو ارتباطهم به».

هكذا طفقت برديتا تجيبني بحرارة. وحين كنت أشير إلى احتمال افتراقهما، كانت ترد: «ليكن ذلك! يوما ما سيأتي ذلك الحين؛ أشعر بذلك. ولكني أجبن عن ذلك الآن. فهذه العلاقة المشوهة، والحفلة التنكرية التي نعيش، عزيزة علي بشكل غريب. على ألمها، وعدم جدواها، بل والدمار الذي تجر علينا. وما يسري في عروقي من نار، بسببها؛ وما اجترحت فيَّ من جرح لا شفاء له، بأسنانها التي تقطر سما. إلا أنني متعلقة بها؛ وقد تقتلني قريبا، فأكون شاكرة لها».

أثناء ذلك، كان ريموند بصحبة أدريان وآيدرس. ولصراحة طبعه، ونظرا لأن غيابي وبرديتا قد طال؛ تحرر ريموند من قيد الأشهر الفائتة، وبسط قلبه أمام أصحابه الثقات. فقص عليهم

الحال التي وجد إيفادني فيها. إلا أنه أخفى اسمها بداية؛ مراعاة لمشاعر أدريان. ولكن، حتى تستبين القصة، اضطر إلى التصريح باسمها، مما أثار أدريان، وهو يستمع إلى قصة عذابها. شاركت آيدرس برديتا سوء نظرتها لليونانية؛ ولكن رق قلبها، وأثير اهتمامها، لِما سمعت من ريموند. أثار جَلد وثبات إيفادني، بل حتى حبها سيء الاختيار إعجاب وشفقة السامعين؛ خاصة حين بدا ذلك جليا لهم، من حادثة ليلة التاسع عشر من أكتوبر، من تفضيلها للموت والعذاب، على أن تكسر نفسها وتطلب الرحمة والعون من محبوبها. ولم ينقص فعلها التالي من إعجابهم شيئا. فبعد أن تشافت، وبعد خطوها عن القبر، تحت رعاية ريموند الحانية، اكتسحت إيفادني مشاعر الغبطة والمحبة تجاه ريموند. ولكن، مع اكتمال عودة الصحة، عادت إلى عقلها. فبدأت تسأله عن أسباب غيابه في ذلك الشهر. كانت تسأل تلميحا؛ ولما جمعت ما كفاها من الأجوبة، اتخذت رأيها، وعزمت على المضي به. لم تعرف أن الصدع الذي سببته بين ريموند وبرديتا لا رأب له؛ ولكنها كانت على يقين من أن بقاءها سيزيد الشقة بينهم، وأن نتيجة ذلك، دمار سعادة محبوبها، وافتراس الندم لقلبه. ومنذ أن تبيّن لها سبيل الصواب، عزمت على أن تمضي فيه، وأن تفارق ريموند إلى الأبد. واشتعل فيها صراع، بين حبها القديم وخيبة أملها، مما جعلها

ترى راحتها في الموت فقط. إلا أن ما منعها من قبل، عاد ليمنعها الآن، وبقوة أكبر؛ فقد علمت أن ذنب موتها سيظل يطارد ريموند أبد الدهر، فيحيط بسعادته حتى يأتي عليها. فضلا عن أن- وعلى سخطها ونقمتها على حالها- همتها لم تصل إلى الحد الذي جعلها ترى الشقاء الأبدي شيء لا بد منه، فلم يكن الانتحار خيارها بعد. بل دفعها طبعها الحيوي، إلى مواجهة الصعاب ؛ فكانت مشاعر حبها التي رأت فيها عدوا واجب قهره، لا ظافرا يجب الخضوع له. وزادها تمسكا بالحياة، ما احتفظت به من ذكريات الماضي الجميل، والتي فضلت أن تعيش عليها في وحدتها، على ظلمة القبر. كان من المستحيل معرفة خطتها بالكامل. فلم تحمل رسالتها لريموند أي دليل، أو إشارة ليستشف منها دليلا. وأكدت فيها أنها بخير، ولن تكون في عازة؛ وأقسمت له بأنها ستقبل على الحياة، وقد تراه يوما، حين تبلغ ما يليق بها من مكانة. وذيلت رسالتها، ببلاغة شجية، تصف حبها غير المتبذل له، ثم ختمتها بوداع أخير.

بعد أن قص ما جرى على مسامع أدريان وآيدرس. رثى ريموند حال الكسر الذي لا جبر له، بينه وبين برديتا، وقال أنه، وعلى فظاظتها، وجفائها، إلا أنه يحبها. كان على استعداد أن يتوب إليها ويؤوب أوبة الخادم المطيع، ويقبل الأرض بين يديها، ويصير

لها عبدا إن شاءت. إلا أنها رفضت كل تقرب منه؛ ولا يظل امرؤ مطأطئ الرأس في حضرة من يرفضه، لذا فقد ولّى ذلك العهد. ومع ذلك، كان كل جهده منصبا على راحة بالها، وكان سبب انزعاجه ما رأى من عدم تقدير لما يبذل. وإن ظلت على مسلكها الجافي هذا، فلا سبيل لهم إلا الفراق. فقد قاده عبثها المستمر هذا إلى الجنون. إلا أنه أبى أن يكون من يطلب الفراق. خشية أن يكون سببا في موت أحد الأشخاص المعنيين بهذه الأحداث؛ ولم يستطع إقناع نفسه باستلام زمام القرار، حتى لا يقود كل من في عربته إلى الهلاك.

انتهى النقاش حول ذلك الموضوع، بعد أن دام لساعات، واستأذن ريموند أصحابه، عائدا إلى المدينة، غير راغب بأن يقابل برديتا أمامنا. واستعدت برديتا وطفلتها، لأن تتبعاه. ورجت آيدرس برديتا أن تبات عندنا. ولكن أختي المسكينة نظرت إليها مخلوعة الفؤاد. فقد عرفت أن ريموند قد تحدث معها بشأنهم، فهل كان هو من طلب إليها أن تقترح على برديتا البقاء في وينزر؟ أهذه مقدمة لفراقهم الأبدي؟ وكما ذكرتُ من قبل، عادت طباع أختي السيئة إليها، بعد أن زلزلها ما مرت به. فنظرت إلى دعوة آيدرس بعين الريبة؛ وعانقتني بحرارة، وكأنه آخر لقاء بيننا قائلة لي بأنني أخوها، وصديقها الوحيد، وآخر ملجأ لها، ورجتني ألا أتوقف عن حبها؛ ثم

غادرت بقلق متزايد، إلى لندن، مسرح وسبب بؤسها.

أقنعها ما تلا من أحداث، بأنها لم تستوعب بعد، عمق البلاء الذي غمرها. فكان شقاؤها يتلون شكلا جديدا كل يوم؛ وكل يوم يكشف عن أمر جديد، يعجل بالكارثة أمام عينيها.

كان الطموح أبرز ما في ريموند من سمات. حضور مواهبه الدائم، وقدرته على إلهام الرجال وقيادتهم؛ ورغبته الخالصة بالتميز، والبروز، أمور غذت طموحه وعظمته. ولكن علقت به شوائب حالت بينه وبين بلوغه مرتبة البطل الظافر. كان ذا إصرار، ولكن لم يكن حازما؛ يبتغي الخير تارة؛ ولا يبالي به حين يُستفز. وقبل كل شيء، كان لا يرده شيء عن تحقيق رغبته، ولكنه كان عصيا متمردا. فحبه للشهوات، والملذات، كان جزءا أصيلا من شخصيته؛ وتهمة لا يستطيع ردها؛ ولطالما قوضت هذه الخصلة طموحه؛ إذ تنسيه تعب أسابيع قضاها من أجل تحقيق رغبة ما، ليقضي ساعة من اللذة، مع رغبة جديدة اختطفته. وطاعة لهذه الأهواء، صار زوجا لبرديتا؛ ومدفوعا بإيفادني صار حبيبا لها. فخسر الاثنين. ولم يبلغ وفاء يهنّئ به نفسه ويعزيها، ولم يقض وطره من شهوة آثمة، تستحثه لقضاءها. وأرهق قلبه، من تعاقب الأحداث الماضية عليه؛ وتكدرت، بل تدمرت حياته الهانئة بسخط برديتا عليه، ورحيل إيفادني عنه؛ ودق

جفاء الأولى المسمار الأخير في نعش آماله. كان يأمل بفرصة لعودة الود بينهما، ما دام أمر الشقاق سرا ولم يذع؛ ولكن، بعد أن صار الأمر معلوما لنا، ونشرت برديتا نيتها، وباتت ملزمة بها، فقد الأمل بالتئام الشمل؛ وسعى، بعد أن أفلس من محاولات التأثير عليها، أن يرضي نفسه بالأمر الواقع. وأقسم أن يلجم قلبه عن الحب، وخيباته، وآلامه، وندامته، وراح يرجو شفاء جروحه، في الملاهي والملذات.

لم يُظهر انفلاته في ذلك المسلك الانحطاط. ولم يكن انحطاطه ليظهر سريعا، لو أن ريموند انشغل في خطط تطوير الدولة، ومهامه كرئيس. ولكن التطرف كان طبعه، فأقبل على الملذات بشغف، وما تبعها من فسق، في سُكره، وغياب عقله. ولم يعد يقرب مكتبه الرئاسي؛ وأهمل جموع الموظفين المؤتمرين بأمره. وصارت الاحتفالات الخليعة، جدوله اليومي.

تابعت برديتا انحداره بذعر. ولوهلة ظنت أنها قادرة على إيقاف جنوحه، وأن ريموند سيستمع إلى صوت العقل، إلا أنها كانت مخطئة. فقد ولى زمن تأثيرها عليه. فكان يستمع إلى نصحها بضجر، ويرد عليها باحتقار، وإن كانت حقا أيقظت ضميره، فإن ذلك كان يدفعه إلى عودة سريعة إلى مجونه، ليخرس ذلك الصوت. سعت برديتا، إلى ملئ مكانه في المكتب الرئاسي. وأتاح

لها رباط الزواج الظاهر أن تنجز الكثير؛ إلا أنها في نهاية الأمر، لم تستطع أن تسعف زوجها؛ الذي أهمل كل واجباته، وداس على المراسيم، منقطعا للخلاعة.

بلغتنا أخبار هذه التغيرات الغريبة، ولم نعرف بداية أي طريقة سنسلك لنعيد صاحبنا إلى نفسه، ووطنه، إلى أن ظهرت برديتا بيننا فجأة. ففصلت لنا أخباره المؤسفة، ورجتني وأدريان أن نذهب إلى لندن، لنقتلع ذلك الشر منه. «قولوا له»، صاحت، «أن وجودي لن يزعجه بعد اليوم. وأنه لن يحتاج إلى الانغماس في خلاعته تلك، لينفرني منه. فقد تم له ما يريد، ولن يراني بعد اليوم. ورجائي الأخير، أن لا تضيع تضحيتي هذه سدى، لأجل إنجلترا وأهلها».

تناقشت وأدريان، في أثناء رحلتنا إلى لندن، حول مسلك ريموند، وانحداره عن كرم أخلاقه، التي كانت مضربا للمثل من قبل. كنت وصديقي أبناء مذهب واحد في التفكير، أو بشكل أدق، كنت تلميذه في ذلك، واتفقنا على أن الثبات على المبدأ هو الطريق الوحيد للشرف؛ وأن الاستمرار على درب الخير، هو ما يجب أن يصبو إليه الإنسان. وعلى اتفاقنا في الخط العام، كنا مختلفين في سبل التنفيذ. ولما كنت ساخطا على ريموند، كنت شديد الإنكار عليه، وشجبت مسلكه ذلك بقسوة. أما أدريان فقد كان أكثر

مراعاة ولينا. فقد أقر أن الطرق التي ذكرت كانت صائبة، إلا أنها ليست الوحيدة الصالحة للتنفيذ. وأصر على أن عدد طرق إصلاح الرجال، بعدد الرجال أنفسهم، فلكل منهم شخصية مختلفة، مثلهم كمثل أوراق الغابة، التي لن تجد فيها ورقتين متطابقتين.

بلغنا لندن عند الساعة الحادية عشر مساء. وتوقعنا أن نجد ريموند في البرلمان، غير آبهين بما قيل لنا عن مكان تواجده، فخففنا إلى هناك. كانت قاعة المجلس ممتلئة، ولكن لم يكن الرئيس موجودا؛ وبدا على وجوه قادة الأحزاب استياء بارز، أما الأعضاء الأقل مكانة فقد استغرقوا في نميمة لم تكن أقل وضوحا، من استياء القادة. فعجلنا إلى القصر الرئاسي. ووجدنا ريموند في غرفة الطعام، برفقة ستة آخرين؛ يديرون الكأس بينهم، بجذل، وكان واحد أو اثنين منهم في سكر شديد. وكان أحد الجالسين بالقرب من ريموند يسرد قصة أضحكت البقية إلى حد التشنج.

جلس ريموند بينهم، ولم يفارقه وقاره، حتى في ساعة السكر تلك. كان مبتهجا، طربا، إلا أنه لم يتخط حدود الأدب، الطبيعي فيه، في أي من نكاته. وأعترفُ أن منظره استفزني إلى حد بعيد، حين رأيت صحبته السافلة تلك -هو الذي أخذ على عاتقه أن يتحمل أعباء الرئاسة- وسكره الذي كان فيه، والذي بدا وكأنه

يجرده من دماثته رويدا رويدا. وقفت أنظر إليهم، بينما انسل أدريان إلى حلقتهم، محاولا أن يوقف الفوضى التي كانوا عليها. وعبر ريموند عن سروره لرؤية أدريان، ودعاه للانضمام إلى حفلهم.

أثارني فعل أدريان. وأسخطني قربه من رفاق ريموند، عديمي الأخلاق، وحثالة أهلهم، وعار بلدهم. «اسمح لي يا أدريان»، صحت، «أرجو ألا تقبل دعوته، وأن تساعدني في سحب اللورد ريموند من هذا المجلس، إلى مكان آخر».

قال ريموند، «لا المكان ولا الزمان ملائمان، لدرس في الأخلاق، يا صاحبي، وثق بكلامي حين أقول لك، بأن مرحنا هذا، وصحبتي هذه، ليسا بالسوء الذي تظن. لسنا منافقين، أو حمقى، كما الآخرين. فلا تجعلن من فضيلتك لجاما لمرح الآخرين».

أشحت عنهم بغضب. «فيرني»، قال أدريان، «لا تكن متشائما، اجلس؛ وإن لم تفعل، لعدم اعتيادك هذه المجالس، سيسايرك اللورد ريموند، ويرافقنا إلى البرلمان، كما اتفقنا من قبل».

نظر ريموند بحدة إليه، فرأى الوداعة في قسماته وجهه، ثم نظر إلي، فرأى السخط الذي كنت عليه. «هيا بنا»، قال أدريان، «لقد

وعدت بأنني سأحضرك معي، أعنّي على الوفاء بوعدي. تعال معنا». تحرك ريموند بتثاقل، وأجاب باقتضاب، «لن أفعل!»

انفضت الحلقة في أثناء ذلك. وتفرق الجلوس، ينظر بعضهم إلى اللوحات في الغرف المجاورة، ويتحدث بعهم حول طاولة البليارد، وواحدا تلو الآخر اختفوا من المكان. ذرع ريموند الغرفة غاضبا. ووقف مستعدا، لسماع توبيخه والرد عليه. واستند أدريان على الجدار. وصاح، «أي سخافة هذه؟ ولو كنتم أطفالا لما بلغتم هذه الجهالة!»

قال ريموند، «لستَ تفهم. لن أخضع لهذا العرف الاستبدادي. أيعني كوني رئيسا لإنجلترا، أن أقبل بأن أكون العبد الوحيد في إمبراطورتيها؟ وأن أقبل باقتحام خصوصيتي، ومراقبة كل ما أفعل، وإهانة جلسائي؟ ولكن، لارتاح من كل ذلك، كونوا شهداء عليَّ». وخلع شارة الرئاسة عن صدره، وقذف بها على الطاولة. «أعلن التخلي عن منصبي، والتنازل عن سلطتي، وليأخذهما من يشاء!»

صاح أدريان، «ليأخذه من يجد نفسه أو يرى فيه العالم، شخصا أعلى مقاما منك. لا يوجد في إنجلترا بأسرها، رجل يظن ذلك. فق إلى نفسك يا ريموند، وتوقف عن الغضب، ليعود إليك رشدك. قبل بضعة أشهر، ما كنا ندعو لأنفسنا أو لبلدنا، إلا وكان الدعاء

لك مقرونا بذلك. كرستَ وقتك لمنفعتنا، ابتغاء تحقيق طموحك، ونيل ثنائنا. زينت مدننا بالصروح، ووهبتنا إنجازاتك، وأخصبت الأرض بك. وخضع الجبارون والعتاة على أعتابك، واشرأبت أعناق المظلومين والمساكين بعدلك.

أيخفى عليك سبب ذعرنا وحزننا لما تبدل من حالك؟ ولكن، آن لهذا الليل أن ينتهي؛ عد إلى سابق عهدك، وسيحييك أنصارك، ويخرس أعداؤك؛ وسيتجلى حبنا، وفخرنا، وطاعتنا، لك. أمسك قياد روحك، يخضع لك العالم، يا ريموند».

«ما أحسن قولك، وأنجعه، لو أنه وجّه لغيري»، أجاب ريموند بكآبة، «أنت أولى بهذا النصح، فأنت خير من وطأ تراب هذه الأرض، وخير حاكم لها، لو شئت. ففيك الخير والحكمة والعدل، وكل الشعب يحبك. أما أنا، فقد وعيت لتعاستي، أنني تبوأت ما لست أهلا له في انجلترا. أعجز عن السيطرة على نفسي. تقلبني أهوائي كيفما تشاء؛ وانفعالاتي تحكمني حكم الطغاة. أتظن أنني تخليت عن منصبي، لمجرد نوبة من الكآبة؟ أقسم بالإله، ألا أحمل هذه الشارة أبدا مرة أخرى؛ وألا أحمل وزر العناية والشقاء، الذي نيره هذه الشارة.

كان حلمي، في يوم من الأيام، أن أصير ملكا. كان ذلك في أوج

الشباب وحماقته. وحين عرفت نفسي، تخليت عن ذلك الحلم. وها أنا أتخلى عن حلم آخر، بعد أن أدركت أني لست أهلا له. سلمت نفسي، لأشهر عديدة، لهذه السخرية المهيبة، وهذا الهزل الجاد. ولن أقيم يوما آخر في جلبابها. سأحرر نفسي.

فقدت زينة حياتي، وجلالها، وصلتي بالرجال. ها أنا رجل وحيد، من جديد؛ سأعود إلى ما كنت عليه في السنين التي خلت، مغامرات، وجنديا مرتزقا. ولا تحاولوا يا أصدقائي، وأقول أصدقائي لأني أعدك صديقا يا فيرني، أن تثنوني عن عزمي هذا. تزوجتْ برديتا خيال رجل، ولم تأبه بما تحت الغطاء، وحين عرفت حقيقتي المعيبة الحقيرة، تخلت برديتا عني. كان لعب دور الحاكم أمرا ممتعا معها؛ كما مثلنا ابتغاء للمتعة، دور رعاة الغنم في منتجعكم الساحر في الغابة. كذلك كنت راضيا، لرضى برديتا لا لرضاي، بأن ألعب دور الرجل العظيم، وآخذها في أرجاء الفخامة، وألون حياتها بعرض قصير من بهاء السلطة. كنت أرجو ذلك لنا؛ وأن يكون الحب والثقة، حياتنا. ولكن هي الحياة، نحيا فيها، ولا سلطة لنا عليها؛ وبعد أن ضيعتُ الواقع، وأنا أطارد الأحلام، أعلن التخلي عن كليهما.

أنا موشك على العودة إلى اليونان، يا أدريان. لأعود جديدا،

أو فاتحا ربما. هل تنضم إلي؟ سترى مناظر جديدة، وتقابل قوما آخرين؛ ستشهد الصراع العظيم بين الحضارة والبربرية؛ وربما تساهم في توجيه تلك الأمة الفتية، إلى الحرية والنظام. تعال معي، لطالما أملت ذلك منك. لطالما انتظرت هذه اللحظة. كل شيء جاهز، هل سترافقني؟»

«نعم، سأفعل» أجاب أدريان.

«توا؟»

«غدا إن شئت».

«فكر!» صحت.

«لماذا؟» سأل ريموند. «كان شاغلي الوحيد طوال الصيف، يا صاحبي، هو التفكير في هذه الخطوة؛ وثق أن أدريان قد استغرق نفس قدر التفكير، في هذه اللحظة. ولا تحدثني عن التفكير، فمنذ هذه اللحظة، أنا براء منه. هذه لحظة السعادة الوحيدة لي منذ زمن. يجب أن أذهب يا ليونيل؛ تلك مشيئة الآلهة، وأنا لها مطيع. ولا تحاول أن تحرمني، أنا المنبوذ، من رفيق رحلتي.

كلمة أخيرة لبرديتا، للظالمة القاسية. ظننتُ لفترة من الوقت، أن هناك أمل إن أتيتُها طائعا، بأن تُضرم شعلة الحب في قلبها. إلا أن قلبها، كان أبرد من جمر مر عليه شتاء، وعلاه جبل من ثلج. وهكذا، بعد أن حاولت، وكسرت نفسي، زدت الأمر سوءا. مع ذلك، لا أزال أظن بأن الزمن، والغياب، كفيلان بأن يعيدانها إلي. وتذكر، بأنني لا أزال على حبها، وأن أغلى أمل هو أن تعود لي. أعرف الزيف الذي ألبسته الحقيقة، ولا تدري هي ذلك. لذا، أرجو أن لا تكشفوا الغطاء عن عينيها جملة واحدة، بل رويدا رويدا. قدموا لها مرآة، تجلو فيها صورتها لها؛ حتى إذا ما عرفت الحقيقة المرة، وما ارتكبت في حقي من ظلم، هرعت لاستعادتي، ولتنصفني، بمغفرتها، وعطفها، وحبها.

الفصل العاشر

كان من الصعب علينا الوقوف على أقدامنا بعد تلك الأحداث. إذ ضربت عاصفة معنوية شديدة سفينتنا المزعزعة؛ وبقينا -نحن الناجون من العاصفة- مشدوهين لفقد من رحلوا، ولما حل من تغييرات. كانت محبة آيدرس لأدريان شديدة، ولم تطق له غيابا، خاصة وأن غيابه لم يكن معلوم المدة. أما بالنسبة لي، فأدريان ضرورة من ضرورات الحياة، فعلى يديه تعلمت الأدب، وكانت فلسفته الرائقة، ورأيه السديد، وصحبته المفعمة بالحماس، خير ما في جلساتنا، ونشوتها. وحتى الأطفال، ساءهم فقد رفيقهم المرح. أما برديتا، فقد مزقها أسى عميق. فعلى سخطها، انشغل بالها ليل نهار بالأهوال والأخطار التي سيقابلها المغامرون. غياب ريموند، وصراعه مع المصاعب، وفقده لسطلة وجاه الرئاسة، ومخاطر الحرب، صارت شغلها المحموم؛ إلا أنها لم ترغب باستدعائه إلى الأمان، خوفا من ارتباطهما مجددا. إذ شعرت بأن هذا الارتباط كان أمرا مستحيلا؛ إلا أن الندم والحسرة على غيابه، كانا شريكا ظنها ذلك، وزاداها غضبا على ريموند، من سبَّب لها كل ذلك الألم. كانت حيرتها هذه سببا لتبلل وسادتها بالدمع، كل ليلة، وسحق شخصيتها، وعقلها، فلم يبق منها إلا خيال من برديتا

السابقة. قصدت الوحدة، وتحاشتنا، كلما اجتمعنا في لقاءاتنا العائلية البهيجة. فقضت وقتها متأملة في وحدتها، أو جائلة في الأرجاء بلا انقطاع، وكانت صحبتها الوحيدة، الموسيقى الحزينة. بل حتى أهملت طفلتها؛ فصكت بذلك باب قلبها في وجه أي مشاعر حب، وزاد انطواءها عني، أول أصدقاءها وأقربهم لها.

لم أستطع رؤيتها على هذا الحال، بدون أن أحاول تخليصها؛ إلا أنني كنت موقنا بألا نجاة إلا بمصالحتها مع ريموند. وكنت قد استنفدت كل حججي، قبل أن يسافر، محاولا إقناعها بأن توقف سفره. وكانت إجابتها مسبوقة بسيل من الدموع، بأنه لا شيء في هذه الدنيا يستطيع إقناعها بذلك. ولم تكن الإرادة ما ينقصها لتحقيق ذلك، بل القدرة؛ فأعلنت مرارا وتكرارا، بأن تقييد مياه البحار، ووضع السرج على الريح، أسهل من إقناعها بأن تقبل الكذب محل الحقيقة، والخداع محل الصدق، والجفاء محل الحب الراسخ. كان ردها على حججي موجزا، قائلة بأنني مالم أستطع إقناعها بأن الماضي يمكن أن يغير، وأن للكهل سبيل إلى المهد، وأن كل ما تم في الماضي، يمكن محوه، فلا جدوى من قولي لها بأن ما حل بها أمر ممكن إصلاحه. هكذا، وبإباء صارم، تقطع له نياط قلبها، تركته يرحل، وصار الموت والحياة عندها سواء.

لأخرج برديتا من تلك النازلة العاطفية التي كانت فيها، التي ظلتنا نحن بظلالها أيضا، أقنعت رفيقتي الباقيتين، بأن نترك وينزر لبعض من الوقت. فذهبنا شمالا، إلى مسقط رأسي، ألسووتر، فتمتعنا بمناظرها الخلابة. وابتعدنا في سفرنا إلى اسكتلندا، علنا نرى بحيرتي كاترين ولوموند؛ ومن هناك عبرنا إلى ايرلندا، ممضين بضعة أسابيع في أرجاء كيلارني. كانت النتيجة ما توقعت، من فائدة تغيير المكان؛ فبعد عام من الغياب عن وينزر، عادت برديتا إلى هناك هادئة وديعة. وكانت رؤية وينزر أول الأمر، مشوشة لها. لما يحمله المكان من ذكريات مرة في كل بقعة من بقاعه. فممرات الغابة، ووهداتها، وهضابها، والضفاف المتألقة حول نهر التايمز الفضي، غنت بصوت حزين، رثاء لما مضى.

لكن محاولتي لإعادة برديتا إلى سابق عهدها لم تنته بعد. إذ كانت برديتا، إلى الآن تفتقر إلى التعليم. فلما تركت حياة الفقر، وسكنت مع إيفادني اللبقة الحذقة، كان الشيء الوحيد الذي أتقنت هو الرسم، ذلك أن موهبتها في ذلك المجال كانت قريبة من العبقرية. وكان ذلك شاغلها في كوخها الصغير، حين تركت حمى صديقتها اليونانية. أما الآن فقد ألقت لوح ألوانها، وحامل لوحاتها جانبا؛ إذ كلما حاولت الرسم، احتشدت في رأسها الذكريات

الأليمة، مرجفة يدها، ومسبلة دمعها. ولما حصرت نفسها في هذه الحرفة، أهملت كل شيء دونها؛ وغدا عقلها الخالي من الشغل، يفترس نفسه حتى كاد أن يوردها الجنون.

أما بالنسبة لي، فمنذ أن انتشلني أدريان من توحشي، إلى جنة نظامه وجلاله، لم تفارقني الكتب. إذ كنت مقتنعا، أنه، وبخلاف الأزمنة الغابرة، لا سبيل للمرء إلى عظمة أو رفعة بدون مطالعة كثيفة. وبالنسبة لي، كانت خيرا من الانشغال في حرفة أو وظيفة، أو طموح، أو كل ما يثير عامة الناس من الماديات. فكان منتجعي، وغايتي في الحياة، التبحر في أقوال الفلاسفة، ودراسة التاريخ، وتعلم اللغات. حتى غدوت كاتبا. إلا أن كتبي كانت متواضعة؛ إذ اقتصرت على سير عظماء التاريخ، وخاصة أولئك الذين ظننت أنهم شوهوا، أو لم يوفوا حقهم من التأريخ.

مع ازدياد مؤلفاتي من الكتب، تملكتني أحاسيس جديدة. أحسست برابط جديد بيني وبين الخليقة؛ توسعت مداركي، أصبحت فجأة مهتما، بعمق، بقدرات وأهواء البشر. قيل أن الملوك آباء لشعوبهم. وكذلك أحسست، بأني أب للبشرية جمعاء، وأنهم من صلبي. وأن أفكاري جواهر تُثري خزينة المعرفة البشرية؛ وأن كل رأي أهبه لهم، هدية ثمينة. لم يكن مولدها من

الغرور. إذ لم تنطق بها شفتي، أو يكتبها قلبي، ولا حتى صاغتها أفكاري؛ إلا أنها ملأت جوانحي، وفاضت بها روحي، وأنتشى بها فكري؛ فأشعلتني بالحماس، وهدتني السبيل خارج طريق الظلمة الذي عشت فيه من قبل، إلى طريق البشرية المنير، جاعلة مني أخا للجميع، وسالكا على درب الشرف الخالد، وطامحا إلى ثناء وقبول أبناء جنسي.

حتما لم يستمتع أحد بالتأليف مثلي. فحين كنت أترك الغابة، هيكل الطبيعة البهي، وحفيف أغصانها المهيب، كنت أقصد قاعات القلعة الفارهة، ومنها، أنظر إلى إنجلترا الغناء، الممتدة أسفل مترفعنا الملكي، بينما أستمع إلى أوتار الموسيقى. تتغلغل تلك الأنغام الجليلة في أفكاري المتباطئة، وتدفع بها، كما ظننت، مخترقة حجاب الطبيعة والخالق، فتعود مصورة بأبهى جمال، وتعبير ميسر لفهم الإنسان. ومع استمرار الموسيقى، تفارق أفكاري مسكنها الفاني؛ فتنفض أجنحتها، وتحلق سابحة في تيار الأفكار، مالئة الوجود ببهاء جديد، وباعثة صورا خلابة، والتي لولاها لما أفاقت من غفوتها. فأسرع إلى طاولتي، ناسجا شباك تلك الأفكار بالحبر والكلمة؛ تاركا أمر تزيينها إلى أن تختمر.

إلا أن حالي ذاك، الذي قادني بعيدا، كان فيما مضى، لا

الآن. ولمَّا وجدت في الكتب ما وجدت من متع، وضبط للعقل، تحمست لأرشد برديتا إلى ذلك. فبدأت أغريها بذلك برفق؛ أولا بإثارة فضولها، لأشبعه بعد ذلك بطريقة قد تنسيها بعضا من أحزانها، وتشعرها بمتعة الوقت الذي ستقضيه بين الكتب.

كان النشاط الذهني، على كونه في غير الكتب، سمة ملازمة لأختي. فظهر في صباها في طلبها للوحدة، والتأمل في الجبال، محفزا إياها لبناء ما لا حصر له من الأشكال، مستخدمة أكثر الأشياء تواضعا حولها، شاحذة بذلك مداركها، وخيالها. ثم جاء الحب كعصا المعلم، ليروض كل نزع، ويُجوِّد كل حسن فيها؛ ويتوج نبوغها. أكانت حقا ستكف عن الحب؟ نزع الألوان من الزهور، وحلب السم من أثداء الأمهات، بدلا من الحليب الطيب، أهون من فطم برديتا عن الحب. أتعبها فقد ريموند وآلمها، فنفى الابتسامة عن شفتيها، وترك الحزن علامته في جبينها. ولكن عذابها كان يتلون بلون كل يوم وساعة، ملبسا إياها ثوب حداد جديد في كل حين. ولحين من الدهر، كانت الموسيقى غذاء عقلها الجائع. إلا أن أوتارها كانت مقلبا لأوجاعها. وقادها تعليمي، في بدايته، إلى محبة الكتب. ففي حين كانت الأوتار قوت حزنها، كان نتاج فكر الحكماء دواء لها. كان تعلم اللغات الجديدة أمرا مضجرا،

خاصة لمن كان قليل الكلام، إلا مع نفسه، وقليل القراءة لغرض التسلية؛ إلا أنها ألحت على فهمها، وبحثت في مقاصد الكتاب، صائغة كل فكرة بألف صيغة، مقبلة بحماسة على فك رموز كل جملة. أرادت أن تصقل عقلها؛ فرقت طباعها من جديد، تبعا لذلك التأديب. وبعد حين، بان لها أن أهم ما انكشف لها، في معارفها الجديدة، هو شخصيتها، التي كانت تحسب أنها ملمة بها. وبدأت -بغرابة وجهل- بالتعرف على نفسها، عن طريق توبيخها، فظهرت لها خصالها الحميدة، وراحت توازن بينها وبين ما بها من سوء. أما أنا، من كنت أرجو عودة السعادة إلى أختي، لإيماني بأنها قادرة على ذلك، فقد كنت أراقب جراحاتها الداخلية هذه بقلق.

بيد أن الإنسان كائن غريب. فمع أنه ليس آلة، إلا أنه يتصرف مثلها أحيانا، فلا يفيد التلقين ولا التعليم في تغيير الغاية التي أوكل بها. وكذلك، لم يفلح، الحزن، أو الحب، أو الفلسفة، في تليين مشاعر برديتا تجاه هجر ريموند. صارت تأنس بصحبتي، وأظهرت لآيدرس ما تستحق من الود واللطف، وعادت بحنان الأم الذي لا حد له لابنتها. ولكن، لم يخفى عليّ، مع كل ذلك، سخطها الشديد تجاه ريموند، وعدم اندمال جرحها منه؛ فكان ذلك عقبة في وجه أملي بسعادتها، حين ظننت أنني قاربت على تحقيقها. ومن ضمن

الأمور المحزنة، فرضها علينا عدم ذكر اسم ريموند أثناء وجودها. ورفضت قراءة أي رسائل من اليونان، طالبة مني أن أبلغها فقط، في حال وصولها، وإن كان أصحابنا هناك بخير. ومن اللافت، أنه حتى كلارا الصغيرة، امتثلت للقانون الذي فرضته والدتها. كانت في الثامنة من عمرها، حينها. وكانت قبل ذلك، طفلة خفيفة الظل، بهيجة، مرحة. وبعد رحيل والدها، طبع التفكير وجهها الصغير. نادرا ما يجد الأطفال، لقلة ضلوعهم في اللغة، ما يناسب من الكلمات للتعبير عن أفكارهم؛ ولم نستطع أن نعرف بأي شكل أثر فيها ما جرى من أحداث. ولا ريب أنها لاحظت وعرفت ما جرى حولها من تغيرات. فلم تأت على ذكر والدها أمام برديتا، وكانت شبه خائفة حين كانت تحدثني عنه، وعلى محاولتي سحبها إلى موضوع آخر، حتى أقشع عنها الكآبة الملازمة لذكرها له، إلا أنني كنت أفشل دائما. ومع ذلك، كانت تراقب وصول البريد كل يوم، وحفظت شعار البريد، لكثرة ما كانت ترقبني وأنا أقرؤه. ولطالما وجدتها منكبة على أخبار اليونان في الجرائد.

لا شيء أشد إيلاما من منظر الهم السابق لأوانه على الأطفال، وبروز ذلك بوضوح على من كانت البهجة سمته قبل ذلك. ومع ذلك، كانت كلارا تفيض عذوبة ودماثة خلق، فلا يملك المرء إلا

أن يعجب بها؛ ولو جمع العقل كل ما فيه من أمزجة الحسن لرسم وجهها، وجمال حركاتها، لخاب، إذ كانت بلا ريب، خَلْقا سماويا؛ خطت الرقة قسماتها، وكانت حركاتها أطرب من قفزات الريم في الغابة من حولها. وحاولت أن أناقش مع برديتا، أمر انطواءها على نفسها، إلا أنها رفضت الحديث في ذلك الأمر، بينما تحرق قلبها على حال ابنتها.

وبعد مرور أكثر من عام، عاد أدريان من اليونان.

حين عاد مغتربنا، كانت هناك هدنة سارية بين الأتراك واليونانيين؛ هدنة أشبه بنوم المحارب، قبل أن يباشر حربه في اليوم التالي من جديد. أقبل الأتـراك، معتمدين على عددهم الهائل، وسلاحهم، وسفنهم، وآلاتهم، وكل ما طالت أيديهم جمعه بثروتهم وسلطتهم، عازمين على سحق عدوهم؛ الذي زحف من بيلوبونيز، آخذا في طريقه تراقيا، ومقدونيا، حتى بلغوا أسوار القسطنطينية، مدعومين بعلاقاتهم التجارية الواسعة مع كل شعوب أوروبا. واستعدت اليونان لمقاومة شرسة، وقامت كلها كرجل واحد؛ وباعت كل امرأة حليها، لتجهز ابنها للحرب، وحثته في الوداع، بروح الأم السبارتية، على ألا يعود إلا بإحدى اثنتين، النصر أو الموت دونه. ولقيت مواهب ريموند من يقدرها حق

قدرها. ولأنه من مواليد أثينا، عدته المدينة أحد أبناءها، وأسلمته قيادة فرقتها الخاصة في الجيش، ولم يكن هناك من هو أعلى رتبة منه، إلا القائد العام للقوات. ولكونه عُد مواطنا بينهم، أضيف اسمه إلى لائحة الأبطال اليونانيين. متعللين، بحصافته، ونشاطه، وشجاعته الباهرة. وتطوع إيرل وينزر، ليكون تحت قيادته.

«انه لمن الحسن...» قال أدريان، «أن أثرثر عن الحرب، في هذه الظلال الماتعة، مصورا لكم مشاهد باهرة للآلاف من أبناء جنسنا، الذين أزهقت أرواحهم، وفارقوا الهواء العليل، لهذه الأرض الولادة. ولا يظنن أحد بأني كاره لمناصرة اليونان؛ بل أعرف غايتهم، وضرورتها؛ وأنها أسمى من أي غاية أخرى. وقد دافعت عنها بسيفي، ولم أحجم عن بذل روحي في سبيلها؛ فالحرية أغلى من الحياة، وخير ما يفعله اليونانيون من بذلهم لأرواحهم لنيلها. ولكن، لنصْدق أنفسنا القول. فالأتراك بشر، وكل عرق، وعضو فيهم، يحس كما نحس، وكل رعشة، ذهن أو جسد، لا تختلف فيهم عن تلك التي تعترينا. وآخر مشهد شهدته، كان أخذ مدينة. قاوم الأتراك إلى آخر رجل فيهم، وهلكت الحامية وهي تدافع عن الأسوار، ثم دخلنا مقتحمين. وأعمل السيف في كل كائن يتنفس بين تلك الأسوار. أتحسبون أن عصبا فيّ لم

يشعر بما يزهق من الأرواح، في غمرة صرخات موت الأطفال الأبرياء؟ كان الضحايا، رجالا ونساء، من المسلمين؛ ولكن، حين ينشرون حاسري الرؤوس، من قبورهم، ما الذي سيفرقهم عنا، سوى ما فعلوا من خير أو شر؟ تحالف جنديان بائسان، على فتاة، أثار جمالها الأخاذ وثوبها النفيس غريزتهما؛ وقد يكونا رجلين صالحين بين أهلهم، إلا أنهما كانا في تلك اللحظة تجسيدا للشر. وتدخل شيخ مُقعد أصلع، بلحية فضية، لينقذها، وقد يكون جدها؛ فأركز أحد الجنديين فأسه في جمجمته. هببت لنجدتها، إلا أن الغيظ أعماهما وأصمهما؛ فلم ينتبها لزيي المسيحي، ولا لكلماتي. كانت الكلمات سلاحا غير ذي جدوى حينها؛ فحين تصرخ الحرب، ويكون صداها الموت...

كيف لي

أن أزيل بأس الشر، عن طَريحه

بحسن قول، بليغ، يُريحه؟

استشاط أحد الجنديين غضبا، وطعنني بحربته، في جنبي، فخررت صريعا.

هذا الجرح مُقصر لعُمري على الأرجح، فجسدي هزيل ضعيف بدونه، ولكني راض بالموت. عرفت في اليونان، أن المرء سلعة تشرى لتسد النقص في صفوف الجند؛ ولا يهتم أحد لهويته، ما دام يشغل خانة في سجل الكتيبة. إلا أن أثر ذلك على ريموند، كان مختلفا. كان قادرا على استجلاء غاية الحرب، بينما لم أر أنا إلا فظائعها. هو جندي، أمير جند. قادر على استثارة كلاب الحرب المتعطشين للدماء، بينما كافحتُ غرائزهم تلك، عبثا. وسبب ذلك أمر صغير. إذ قال بيرك، 'إن من يطلب القيادة، في أي مجال، لابد أن يكون تابعا قبل ذلك'. ولست أطيق تبعيتهم، لأني لا أحلم بمجد الحرب، ولا أقبل بمجازرها. أما ريموند، فتلك جِبلته، أن يتبع إلى أن يقود، في ذلك المجال. فكان فأله النجاح، ودائم التبشير، كما رفع اسمه ومكانته، بالانتصار لليونانيين، بل، وربما، بمد إمبراطورتيهم.

لم يرق قلب برديتا، ولا عقلها، لِما سمعت. وحدثت نفسها، بأنه سيكون سعيدا وعظيما بدوني. يا ليت لي أن أنجح في مجال ما! لكم أتمنى أن أركب طوفا بكرا، مرتفقة آمالي كلها، ورغباتي، وحاشدة كل طاقتي، ثم أبحر قدما، في محيط الحياة، قاصدة هدفا في المتناول، ومديرة دفة طوفي، بطموح أو لذة. ولكن هيهات،

فالريح حبستني على الشاطئ؛ وكمثل يوليسيس، أجلس باكية على حافة الماء. بيد أن يدي الواهنة، لا تقوى على قطع الأشجار أو صقل الألواح. تحت تأثير هذه الأفكار السوداوية، نتج حب بينها وبين أحزانها. إلا أن وجود أدريان، كان ذا أثر حسن؛ فكسر أولا، قانون عدم ذكر ريموند. جفلت برديتا أول مرة لسماع اسمه، ولكن، سرعان ما ألفت ذلك الصوت، بل وأحبته؛ وصارت تستمع بشغف إلى قصصه وإنجازاته. وتخلصت كلارا من قيودها؛ وعاد أدريان رفيق لعبها القديم؛ وكلما ركبا أو سارا، خضع لرجاءاتها، ليعيد عليها للمرة المئة، قصص شجاعة، وعدل، وسخاء والدها.

في تلك الأثناء، توالت الأخبار المنعشة من اليونان. وزادنا حماسا لتلك التفاصيل، حضور صاحبنا الذي كان جنديا في جيوش اليونان؛ وما يصلنا من رسائل بين الفينة والأخرى، من ريموند، والتي حدثنا عن انكبابه على مصالح بلده الجديد. كان اليونانيون أهل تجارة، راضين بما كسبوا من الحرب، ولولا أن هاجمهم هجوم جديد من الأتراك، لما استمروا في الحرب. كانت معنوياتهم عالية، لما حققوا من انتصارات؛ وصارت القسطنطينية في متناول أيديهم. لهجت ألسنتهم أبدا في مدح ريموند، ولم يكن أعلى منه رتبة إلا القائد العام للجيش. كانت خطته وموقع

جيشه، وحملاته الباسلة، أمرا مبهرا في المعركة التي خاضها في سهول تراقيا، على ضفاف نهر ماريتسا، حيث تقرر مصير الإسلام. هزم المسلمون، وأجلوا بالكامل عن الأراضي غرب النهر. كانت المعركة دامية، وتكبد الأتراك فيها خسائر فادحة؛ أما اليونانيون، فقد شغلهم موت رجل واحد عن موت آلاف الرجال الذي غطت جثثهم أرض المعركة الحمراء، وتضاءلت قيمة النصر في عينهم، لمَّا كانت كلفته روح ريموند.

قاد في تلك المعركة هجوم الخيالة، مطاردا المهزومين إلى النهر. ثم وُجد حصانه يرعى العشب في هدوء بجانب النهر. ثار التساؤل، إن كان قد سقط مع من سقطوا؛ إلا أن شيئا لم يدل عليه في أرض المعركة. وظن الناس أن الأتراك حين أمسكوا بهذا الأسير الشهير، قادهم تعطشهم للدماء إلى قتله، بدلا من طلب الفدية، ثم تستروا على جريمتهم تلك بأنهم لم يذيعوا خبر قتلهم ألد أعدائهم، وأكثرهم رعبا، حتى لا تدخل إنجلترا الحرب.

و لكن ريموند لم يكن منسيا في إنجلترا. كان لتنازله عن الرئاسة أثر لا مثيل له؛ فرثى الناس أيامه، حين خلف عهده البهي، سياسيون آخرون أدنى همة منه. واجتمعت ذكراه الطيبة في أذهان الناس، مع حاضرة المشرف في اليونان، وزادته ألقا في القلوب.

ساء الناس فقد نجم الدهر اللامع، وفقدت البشرية شيئا من تلألأها. وتعلق الناس، بأي بارقة أمل، تشير إلى حياته. وأوصت الحكومة، سفيرها في القسطنطينية، أن يتقصى الأخبار، وأن يعمل على إطلاق سراحه، إن كان حيا. تأمل الناس خيرا، واستبشروا خلاصه، من السجن والعذاب المقيت، إلى السعادة والمجد والشرف، والتقدير.

كان لتلك الأخبار، أبلغ الأثر على أختي. لم تصدق أبدا خبر مقتله؛ وعزمت على الذهاب فورا إلى اليونان. ولم تقنع بأي رأي قُدم لها، رافضة أي تأخير. ومن مظاهر التردد، أن يكون الرجاء أو الإقناع كافيا لثني أولئك الذين يكون دافعهم وغايتهم الحب، عن تجشم الصعاب؛ وفي مثل تلك الحال، فثني ذلك المرء خير. أما إن كان ثابت العزم، مصرا على ما بدأ فيه، لا يردعه ناصح؛ فواجب أصحابه معاونته، وتذليل الصعاب له. كان ذلك الشعور حال حلقتنا الصغيرة. بعد أن رأينا ثبات برديتا على رأيها، بدأنا بالبحث عن أفضل الطرق لبلوغ غايتها. لن تستطيع السفر إلى بلد لا أصحاب لها فيه، وقد تفد إلى هناك لتسمع الخبر الذي يهد كيانها، ويغمرها بالأسى والحزن. وأدريان الذي لم يشفى بعد، ألمت به مضاعفات، وألم فظيع، جراء ذلك الجرح. ولم تقو آيدرس على

تركه في تلك الحال؛ ولم يكن صوابا أن نرحل جميعا آخذين معنا الأطفال الصغار. أخيرا، قررت أن أرافق برديتا. كان فراق آيدرس عزيزا علي؛ لكن الضرورة هونت علينا الأمر إلى حد ما. ضرورة وأمل انقاذ ريموند، وإعادته وبرديتا إلى حديقة السعادة. بلا إبطاء، وبعد يومين من قرارنا، انطلقنا إلى بورتسموث. كان الفصل صيفا، والجو صافيا، وبدت رحلتنا واعدة. أبحرنا في عرض المحيط، حاملين آمالنا المتحرقة، ناظرين ببهجة إلى شواطئ بريطانيا المنحسرة، تسبقنا رغبتنا إلى حيث قصدنا. حملتنا الأمواج الوديعة قدما، وابتسم المحيط لسفينتنا المشحونة بالحب، وهي تشق عبابه بنعومة. ودفت الرياح الرائقة، مؤخرة السفينة، ليل نهار؛ ولم تعترض ريح عاصفة، أو غبار، أو صخرة مهلكة، طريقي وأختي نحو البلد الذي، ضم قلبها، بل قلب قلبها.

انتهى الكتاب الأول ويليه الكتاب الثاني.

ماري شيلي

الإنسان الأغبر

الحُب

أُقدمّ آخر ما اكتشفت في أوراق العرافة. ولأنها كانت غير متصلة ومبعثرة المعنى، كنت ملزمة بأن أصلها بما يناسب، لتظهر متماسكة. إلا أن ذلك لم يخل بجوهر هذه الشذرات الشعرية، فبقيت الحقائق التي فيها كما هي.

لطالما تساءلت عن موضوعية هذا النص، وعن اليد الإنجليزية التي صاغته. وكنت أجيب نفسي، بأنه لولاي لبقيت هذه الأوراق مبعثرة لا جامع لها، لذا فلي بأن أصيغها كيفما أشاء. ولو أعطينا مثلا فنانا ما قطع الفسيفساء التي تشكل لوحة تجلي المسيح لرفائيل، لأعاد تشكيلها بما يناسب موهبته وذوقه. وكذلك فعلت، بآثار عرافة كوماي. وعذري الوحيد في ذلك، هو أنني لو تركتها على حالها، لما كانت ذات معنى.

- ماري شيلي.

ISBN 978-99966-97-97-5

@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com

جميع الحقوق محفوظة